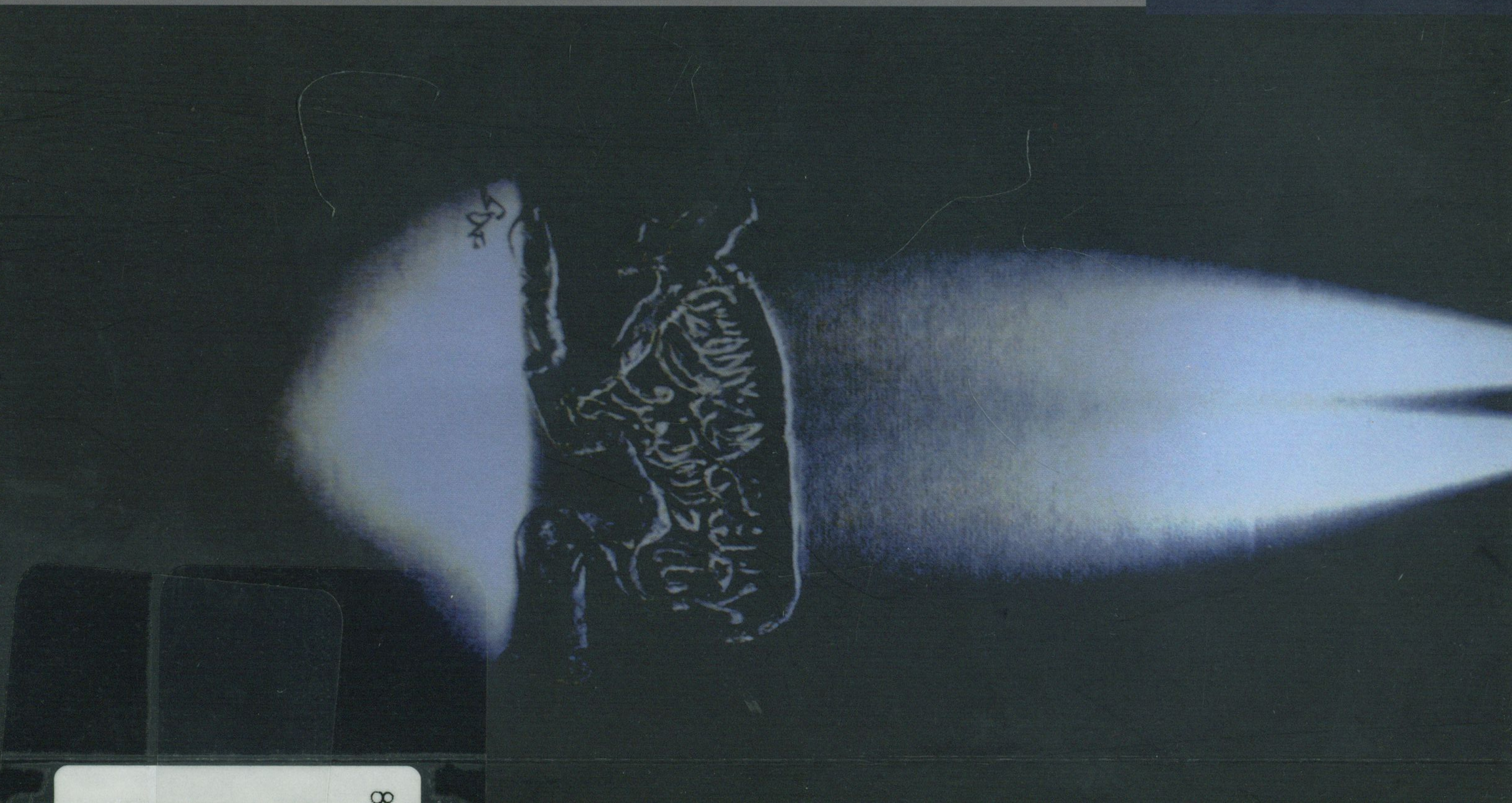
دراسات

التشكيل الفني في شعر أبي مسلم البهلاني

د. أحمد عبد المنعم حالو



التشــكيل الفني
في شعر أبي مسلم البهلاني
(قصيدة المديح النبوي نموذجاً)

الدكتور أحمد عبد المنعم حالو
الأستاذ المساعد للأدب القديم في الجامعات السورية

التشكيل الفني
في شعر أبي مسلم البهلاني

المؤلف: الدكتور أحمد حالو

(الأستاذ المشارك للأدب القديم في جامعة نزوى)

الطبعة الأولى: 2013 (مسقط)

الناشر:



بيت الغشام للنشر والترجمة

مؤسسة التكوين للخدمات التعليمية والتطوير

(سلطنة عُمان - مسقط)

للتواصل:
alghshamoman@gmail.com
هاتف: 24398889 - 99260386
ص.ب: 745 الرمز البريدي: 320
www.altakween.com

لوحة الغلاف للتشكيلي العُماني:
محمد بن فاضل الحسني
تصميم الغلاف: أحلام بنت محمد الرحبي

رقم الإيداع 114 / 2013

الإهـداء

إلى عُمان الخير

إلى ذراها الشامخة

إلى وديانها الوارفة

إلى نسيمها العليل

وشعبها الطيب الأصيل حضارةً ونبلاً

وقيماً خالدة على مر الأيام والسنين

مع خالص الحب والتقدير

أحمد عبد المنعم حالو

تقديم:

تبوأ أبو مسلم بن سالم الرواحي البُهلاني عرش الشعر في عُمان مطلع القرن العشرين لا يكاد ينافسه فيه أحد سوى قرنه ونظيره ابن شيخان، فكان هو شاعر العرب، وكان قرنه أمير البيان.

لقد مثَّل الشاعران قطبي الاختلاف في الذوق الشعري عند القارئ العماني، كما كان الحال في مصر بين شوقي وحافظ، وفي العراق بين جميل صدقي الزهاوي والرصافي[1].

والواقع أنّ حظي من الشاعرين كان قليلاً قبيل اعتلائي منصة تدريس مقرر الأدب العماني[2] فلما علوتها أحطت بعض الإحاطة بالشاعرين؛ تاريخاً ومسلكاً وشعراً، سجلت لأبي مسلم في صفحة الذاكرة تدينه، بيد أني طويت هذا إلى حين، درّسْت طلبتي شعره الاستنهاضي، أطلعتهم على أبجديته في الشوق والحنين إلى الوطن، قرأت لهم من شعره: «تلك البوارق حاديهن مرنان» و«معاهد تذكاري سقتك الغمائم»[3]، قررت لهم امتحاناً في أبياته:

خليليّ ما تذكار ليلى لبانتي — أقامت بنجد أم حوتها التهائم

ولا ربعها العاني عليه تناوحت — صبا ودبور أوبكته الغمائم

ولا شفّني حبّ لغيداء كاعب — كما ارتاع خشف بالخميلة باغم

ولكن شجاني معهد بان أهله — فبان الهدى في إثرهم والمكارم

أعجبت به يصور واقع المسلمين في أيامه، ويرهص لما يجري في أيامنا، وكأنه واحد منا، يحركنا، يبعث فينا الحياة، ينبه الأمة للأخطار المحدقة بها،

1 شعراء عمانيون، سعيد بن محمد الصقلاوي، مكتبة النهضة، مصر، ط1 (1416هـ/1996م) ص 32/209.
2 الأدب العُماني أحد المقررات التي قمتُ بتدريسها في كلية التربية بولاية عبري في سلطنة عُمان، وذلك في الفترة الواقعة بين عامي 2000-2006م.
3 الشعر العماني، مقوماته واتجاهاته، د. علي عبد الخالق علي، دار المعارف، مصر/1984م، ص66.

يخاطبها، يصرخ فيها[4]:

أفيقوا بني القرآن إن هداكم إلى الجبت والطاغوت في الذلّ ضارع
أفيقوا بني القرآن إن كتابكم يُناقَضُ في أحكامه ويُنَازَعُ
تعيثُ قرودُ الجبت في سُنة الهدى إذا عقدوا شنعاء جاءت شنائع

وتعجبت، ولما أتعمق نصوصه الشعرية في عمان، وفي زنجبار كيف ظل هذا الشاعر المسلم مجهولاً في الشعراء المعاصرين له لا يكاد صوته يصلُ إلى الأسماع أو الأعماق، كأنه - كما يقال - أزرى به الأذان، شأنه في ذلك شأن غيره من الشعراء الإسلاميين الذين غيّبهم التزامهم إلى حد ما، على ما تتصف به أشعارهم من صدق وشفافية وتوهج، ومنهجية باركتها يد السماء.

ويُضاف إلى ما ذكرناه نبوغ أبي مسلم، وإحرازه قصب السبق في ميادين شتى من العلم والأدب، ومعايشته الوقائع والأحداث العربية والدولية ونهوضه بجريدة النجاح أولى الصحف العربية في المهجر الإفريقي، وقد مضى يبث من خلالها آراءه وأفكاره، متعرضاً لقضايا أمته، وما يحيط بها من أحداث وشؤون، ويسعى مخلصاً لخدمة الأدب العربي، والنهوض بالشعر بعد كبوته قروناً، ونصرة القضايا الإسلامية[5]، والتعريف بأعلام العرب والمسلمين، بالإشادة فيهم، والتنويه بمقامهم مديحاً ورثاء[6] وكله مما يجعله في مصاف رواد الإصلاح ومتقدميهم.

فهذا عهدي الأول بأبي مسلم، ولي به عهد آخر، يوم توجهت للكتابة عنه مريداً التعريف به من خلال محاور شعره المتعددة، وجدت نفسي أميل للكتابة في أي محور منها، وذلك أن الشاعر لم يترك القراء أو النقاد بعده في أرض يباب، يبحثون في زواياها عن بعض الصوى والأعلام، بل تركهم على المحجة، ملاحم من الشعر في أي باب من أبواب الزهادة والتدين والذكر والتضرع والسلوك إلى الله عز وجل، ولما كان مفتاح القبول لذلك كله حضرة النبي الكريم صلوات الله عليه، ما ترددت لحظة في اختيار محوره، وملازمة بابه ومديحه، لأكتب فيه مشاركاً الشاعر حبه وأشواقه، حنينه وتضرعه، ولحظات

4 ديوان أبي مسلم البهلاني إصدار وزارة التراث القومي والثقافة، عمان (1407هـ/1987م) ص 261.

5 انظر: أبو مسلم الرواحي (حسان عُمان) د. محمد بن صالح ناصر، مكتبة مسقط، عمان (1416هـ/1996م) ص32 وما بعده.

6 المصدر السابق ص 172 وما بعدها.

قال فيها أرباب السلوك: «نحن في لذة لو علمتها الملوك لجالدونا عليه بالسيوف».

ولا يعني ما ذكر تغليب جانب على جانب، فالشاعر في مديحه للنبي الكريم، إنما صدر عن ذات شاعرة، وروح مفكرة، فجاءت قصيدته في المديح النبوي تمثل ذروة من ذروات اللقاء الخالد بين فنية الشعر وخصوصية التدين والحب للنبي عليه الصلاة والسلام، ومن هنا اتسع البحث ليشمل الجانبين معاً، ملامح التشكيل الفني وبنية قصيدة المديح النبوي.

وأكثر من ذلك أن محور المديح النبوي محور حيوي تندمج فيه جزئيات كثيرة من المحاور الشعرية الأخرى، مما أفاض به أبو مسلم، فعند الرسول الكريم، وفي رحابه الطاهرة نقطة التلاقي بين السماء والأرض بين الله والإنسان، ومديحه عليه الصلاة والسلام تعبير جميل عن أخلاقه وقيمه، وما سنّه وما دعا إليه، ولئن رأى بعضهم في خطاب أبي مسلم الشعري في مجال الإلهيات والذكر ما لم يره لغيره من المجالات الشعرية، إذ مضى فيه الشاعر مئات ومئات من الأبيات[7]، فكان بحق ملحمة شعرية خالدة في أسماء الله الحسنى وصفاته، إن الشاعر ما ترك هذا المجال دون أن يختمه بستة وستين بيتاً في مديح النبي عليه الصلاة والسلام، والتوسل به إلى الله عز وجل، ناهيك بما ينبثق عنه المديح من تناص قرآني حديثي صدر عن الشاعر مع كثير من الإسقاطات التاريخية والتراثية، بل إنه مضى في قصيدته «أشعة الحق»[8] يواكب بين سيرة المصطفى عليه الصلاة والسلام، والصحب الذين تفيأ ظل مذهبهم، وأخلص لهم عمره ودهره، فكان في هذا المجال، وفي غيره مما سبق ذكره مظهر أخذ وعطاء، وصدق وولاء، بكل فيوضاته الشعرية بروح نبويّة، ومظهر محمدي كريم، مواكباً بين التشكيل الفني في خطابه وشعره، والتعبير الصادق عن دفقات فكره وخلجات مشاعره وأحاسيسه، وما يعتمل في ضلوعه من عاطفة وأشواق لربه عز وجل ونبيّه الكريم.

وتُعرض هنا ملاحظات على غاية من الأهمية، فمن ذلك أنّ أبا مسلم في بنائه الفني لقصيدة المديح النبويّ جاء بجديد لم نعهده عند متقدمي شعراء العربية، أو عند من جاء في أعقابهم، أو عند من أوقف شعره منهم على «البديعيات» أو

7 انظر قصيدته: «هو الله جل جلاله» وقد جاءت أبياتها في نحو (1597) بيتاً، فيما أحصاه محقق ديوانه علي الجندي ناصف.
8 ديوان أبي مسلم البهلاني، إصدار وزارة التراث، ص 17.

«المديح النبويّ فهو لم يبدأ الدّيار والدمن والآثار وصفاً وتذكاراً، ولم يبك ويخاطب الربع ويستوقف الرفيق»[9]... وهو بالمقابل لم يمهد لمديحه بذكر «البان والعلم» ولم يشر إلى «جيرة ذي سلم» ولم ينزل سلعاً وغيره من أودية الحجاز، بل مضى غير حافل بما تقاطر عليه الشعراء من جعلهم الميم روياً، أو ذكرهم لمحسنات البديع ووجوهه المتنوعة في نظمهم ليقذف نفسه في الحضرة النبوية، ويرتمي في أحضانها القدسية في حالة من الوجد والاستغاثة عزّ نظيرها، وقلّ مثيلها:

غوث الوجود أغثني ضاق مصطبري ... سـرّ الوجود استلمني من يد الخطر

نور الوجود تداركني فقد عميت ... بصيرتي في ظلام العيـن والأثر

صرخة صدق، نداء مضطر، والتزام بغاية المديح، ومنهج متفرد مستمد من الخطاب السماوي الخالد، وذلك حين يتجاوز القرآن الكريم، في قصه الفني كثيراً من جزئيات الحدث، ومفردات القصة التي يذكرها، ليضعنا مباشرة ضمن الغاية التي توخاها، أو من أجلها ذكر هذه القصة أو تلك، فهذا بعض ما يقال في قصيدة المديح النبويّ في خطاب أبي مسلم الشعري، وثمة أمور أخرى تذكر في بنائها الكلي والجزئي، في شكلها ومضمونها، مقدمة وموضوعاً وخاتمة، وفي مقارنتها بالمدائح النبوية وقصائد البديعيات عبر قرون العربية، ما يتبع ذلك من حديث عن صياغتها وأسلوبها ألفاظاً وصوراً وموسيقا شعرية، وما يعرض في أثنائها من عاطفة مشبوبة، وصدق فني، وتناص قرآني وحديثي، مما سنعرض له بالشرح والتفصيل من خلال مباحث تتتالى في المديح النبوي في خطاب أبي مسلم الشعري، وفي بنية قصيدة المديح في شعره: «الشكل والمضمون» و«الصياغة والأسلوب» وسوى ذلك، آملين من الله عز وجل السداد والرشاد، وأن يتبوأ الشاعر الرباني أبو مسلم مكانه اللائق بين شعراء عصره بما تمليه الأمانة العلمية، وموضوعية البحث، بعيداً عن التكلف والمغالاة والله ولي التوفيق، وبه المستعان.

د. أحمد حالو

سلطنة عمان - عبري - 2003م

9 الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري، ت د. قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985، ص27.

المبحث الأول

المديح النبوي
في خطاب أبي مسلم الشعري

يحسن بالباحث الذي يريد استشراف شخصية أبي مسلم البُهلاني في شعره أن يتلمس ذلك مرة في عموم شعره، ومرة أخرى في كل فن من الفنون التي أدار شعره عليها[10]، فإذا نهض بذلك أدرك لتوِّه خصوصية هذا الشاعر، ومغايرته لسائر الشعراء، فيما تميز به من شاعرية فياضة جمعت إليها الجماليات الفنية الرائعة، مع التزام راسخ، وسلوك محمدي ثابت، ورؤية إيمانية شاملة للكون والإنسان[11] فالحق أنه شاعر قد وافاه طبعه، وأسعدته ملكته، وبقدر تمكنه في هذا الاتجاه، بقدر ما هو ذاكر آواه، مخبت، منتصب في محراب الإيمان، تمتد منه اليدان بالتضرع والابتهال والدعاء والتقرب إلى الله عزّ وجلّ.

وكان يمكن لهذه الشاعرية الفياضة في كل اتجاه أن تؤتي أكلها أغراضاً شعرية متنوعة، وفنوناً من القول شتى، غير أنّ الشاعر زجّ بطاقاته الشعرية، وقدراته البيانية في اتجاه واحد، لا يكاد يخرج عنه أبداً، فكيفما قلبّت ديوانه وجدت قصائد الذكر والابتهال والتضرع إلى الله عز وجل تتوالى فيه، تكاد تستحوذ عليه، وتحيط به من أطرافه جمعاء، وكأنيّ به يريد أن يملأ سمع الكون صداحاً عذباً، وتغنياً خالداً بذات الله عز وجل، متنقلاً بين أسمائه العلية، وصفاته القدسية، معلناً في غير مواربة التزامه بطاعة ربّه وذكره، والثناء العطر عليه؛ فهو الشاعر المسلم بكل مواصفاته الأصلية عقيدة، وسلوكاً، وموقفاً لا تزحزحه الجبال.

وهذا لا يعني بحال من الأحوال خلو ديوان الشاعر من الأغراض الشعرية الأخرى مما قاله في الحنين إلى بلده، واستنهاض قومه، أو فاضت عنه قريحته مدحاً ورثاءً، للسادة الأنجاب، والعلماء الأجلاء، ممن يستحقون هذا الشرف، أو مما جارى به أرباب الفنون الشعرية الأخرى، فكان مخمِّساً، أو متغزلاً، أو واصفاً، وسوى ذلك من فنون التعبير عن الذات الشاعرة، فجميعه مما توجّه إليه الشاعر، أو نبست به بنت شفاه له لم يكن إلا من وراء هذا الشعور الديني الذي ملك عليه أمره، فمثَّله خير تمثيل، وعبَّر عنه أفضل تعبير، فكان بحق الشاعر الرباني المسلم.

ولما كان شعر الابتهال هو الشعر السائد في ديوان أبي مسلم، إذا بلغ ثلثي

10 ديوانه أبي مسلم البهلاني، ت: علي النجدي ناصف، طبعة دار الكتب المصرية، 1400هـ/ 1980م المقدمة ص (س).
11 انظر: أبو مسلم الرواحي (حسان عمان) ص45.

شعره أو يزيد[12]، والابتهال لغة: التضرع، والاجتهاد في الدعاء، والإخلاص لله عز وجل[13]، كان لا بدّ أن يرافقه ذكر النبي عليه الصلاة والسلام واقعاً إسلامياً، ومنحى شعرياً، نفذ إليه الشاعر من خلال الشرع الكريم، فيما اشتمل عليه من حضٍّ على ذكر النبي الكريم، والتبرك به، والصلاة عليه، بل وجعل الصلاة عليه مفتاح القبول للدعاء، وأسَّ فضائل الأعمال والطاعات، إذ تسن الصلاة على النبي وراء الأذان[14]، وفي الدعاء، وأوسطه، وآخره[15] «والجمع بين ذلك كله في الدعاء هو الأقوى في الإجابة، وفي مضاعفة الأجر والثواب»[16] ونقل الشيخ عبد الله سراج الدين في كتابه (الصلاة على النبي) أنه (ينبغي للمسلم أن يكثر من الصلاة على النبي في جميع أحواله ما استطاع، فإن في الإكثار منها والمواظبة عليها خيراً كثيراً، وفضلاً كبيراً) [17] واستشهد بأحاديث عدة منها ما رواه الإمام أحمد عن أبي ابن كعب رضي الله عنهما أنه قال: «قال رجل: يا رسول الله أرأيت إن جعلت صلاتي كلها عليك - أي ماذا يكون من الأجر إن جعلت دعائي كله صلاة عليك؟ فقال ﷺ: إذاً يكفيك الله تبارك وتعالى ما أهمك من دنياك وآخرتك»، وفي رواية أخرى لحديث أُبيّ بن كعب، حيث قال: «أجعل لك صلاتي كلها يا رسول الله؟ فقال ﷺ: إذاً تُكفى همك ويُغفَر ذنبك»[18].

وقال ﷺ أيضـاً: «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم علي صلاة»(19)، وملاك ذلك كله قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

12 المرجع السابق ص 45.

13 لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، طبعة دار المعارف مصر، مادة (بهل).

14 الأحاديث الواردة في هذا المجال كثيرة، فمن ذلك ما رواه مسلم وأصحاب السنن عن عبد الله بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة...» ينظر: الصلاة على النبي، أحكامها، فضائلها، فوائدها، جمع وترتيب عبد الله سراج الدين، دائرة الأوقاف الإسلامية، دبي، د.ت.

15 من ذلك ما رواه الترمذي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنت أصلي والنبي ﷺ، وأبو بكر وعمر معه، فلما جلست بدأت بالثناء على الله تعالى، ثم بالصلاة على النبي ﷺ ثم دعوت لنفسي، فقال النبي ﷺ: «سَلْ تعطه» وعن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من دعاء إلا بينه وبين السماء حجاب يصلي على محمد ﷺ» وأحاديث أخرى بهذا الخصوص ينظر المصدر السابق ص 61، 62.

16 المصدر السابق ص 61.

17 المصدر السابق ص 126.

18 المصدر السابق 721.

19 تخريجه من رواية الترمذي (أبواب الصلاة) ينظر: حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، مكتبة العرفان، حلب، 1993م. ص 230.

آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: 56] بمعنى أنه تبارك وتعالى «يعلن لعباده كلهم فضل النبي الكريم ﷺ، وشرف منزلته وكرامته عنده، فهو سبحانه يعلن ذلك في الملأ الأعلى، وينزل هذا الإعلان إلى عالم السماوات، ثم إلى عالم الأرض، فيدوِّي هذا الإعلان في جميع الأكوان، وتسجل هذه الآيات في صفحات الكائنات إعلاماً بأنّ هذا النبي الكريم ﷺ، له شأن عظيم عند رب العرش العظيم»[20]، ويرحم الله القائل[21]:

إن أنت أكثـرت الصلاة على الذي   صلى عليه الله في الآيات
وجعلتهـا ورداً عليـك محتَّمـاً   لاحـت عليك دلائـل الخيرات

ومن هذا المنطلق الإيماني ذيّل أبو مسلم تخميسه (سموط الثنا) للقطب الخليلي سعيد بن خلفان بصيغة الصلاة والسلام على النبي الكريم، وبرر إضافته هذه بقوله: «إنّ هذه الدعوة لم تتصل بنا مذيّلة بصيغة صلاة على رسول الله ﷺ، على أنني أجزم بطريقة حسن الظن في حضرته رضي الله عنه، بأنه لم يترك ذلك إهمالاً للأولى، فإن له في سوابق الخير وأعمال البر وعلم الأذكار القِدحَ المعلّى، فإنه وإن لم يأت بها في متن النظم، فلا نرتاب في إتيانه بها حالة الذكر، تشرّعاً بالواجب، وتذرعاً بالأفضل. ولكن تجاسر العبد على مولاه بأن نظمت لها صيغة صلاة وفاءً بالواجب عليّ لا تلافياً لتقصير اعتده على ذلك القطب»[22].

ومن هذا المنطلق الإيماني كانت عناية أبي مسلم بمديح النبي عليه الصلاة والسلام، وتعطيره قصائده بذكره والثناء عليه تذييلاً، وفي أثناء القصائد، وتخصيصاً له عليه الصلاة والسلام بأجمل المديح وأنبله وأزكاه؛ فأما التذييل فيقع خاتمة لملحمته الكبرى في (ذكر أسماء الله الحسنى)، وخاتمة لقصيدته (خاتمة السعادة)، وخاتمة لقصيدته (النفحة الفاتحة في التوسل بأسماء الفاتحة)، وخواتم أخرى لقصائد أخرى سنأتي على ذكرها في جدول مرافق، وأما التوسيط، وما أجراه من

20 الصلاة على النبي ص 8.
21 المصدر السابق ص 125، وفيه: «إذا أنت...» وبهذه الرواية يُكسر البيت.
22 ديوان أبي مسلم البهلاني، ت: النجدي ناصف، ص 154.

ذكر للنبي عليه الصلاة والسلام ومديح وإشادة في أثناء القصيدة، فيقع في قصديته (مقدس النفوس) في نحو عشرين تخمسياً مديحاً ودعاءً وتوسلاً إلى الله عز وجل بحضرة الكريم وآله وصحبه وأمته، وأما ما أفرد به النبي عليه الصلاة والسلام من قصائد المديح، فيقع في قصيدة واحدة، عدد أبياتها أربعون بيتاً، هذا وقد ذكر في قصيدته (أشعة الحق) كثيراً من ملامح السيرة النبوية، وجاء ذلك مشفوعاً بمديحه عليه الصلاة والسلام، والربط بين سيرته، وسيرة الصحب الذين تفيأ ظلال مذهبهم، وأخلص لهم سلوكاً ومعتقداً؛ وفيما يلي جدول إحصائي يشير إلى مواضع المديح النبوي في ديوانه، وذلك من خلال الطبعتين اللتين وقفت عليهما، طبعة دار الكتب المصرية، بتحقيق علي النجدي ناصف، 1980م. وطبعة وزارة التراث القومي والثقافة، عمان، 1987م على أنني بذلت الجهد في الضبط، فإن ندّ عني شيء ما، فمن تقصير ما قصدته، والكمال أولاً وأخيراً لله وحده.

عنوان القصيدة	موقع المديح في القصيدة	عدد الأبيات	موضع المديح في الديوان ط دار الكتب	موضع المديح في الديوان ط وزارة التراث القومي
في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام	قصيدة كاملة	أربعون بيتاً	ص -	ص ٢٥٩
مقدس النفوس	في أثناء القصيدة	عشرون تخميساً	١٩٥-١٩١	١٦٨-١٦٦
الله جل جلاله	تذييل	ستة وستون بيتاً	١١٧-١١٤	١١٤-١١٢
خاتمة السعادة	تذييل	ثمانية أبيات	١٣٦	١٢٧-١٢٦
النفحة الفاتحة في التوسل بأسماء الفاتحة	تذييل	ثلاثة أبيات	١٥٢	١٣١
المِفْرَج الأسى	تذييل	ثمانية أبيات	١٤٥	١٣٧
درك المنى في تخميس سموط الثنا	تذييل	التخميس الأخير	١٧٦	١٥٥
مقدس النفوس	تذييل	التخميس الأخير	٢٠٦	١٧٥
الكلم الطيب	تذييل	عشر تخميسات	٢٣٦-٢٣٥	١٩٧-١٩٦
الباقيات الصالحات	تذييل	ثمانية أبيات	١٦٦-٢٣٧	٢٤٤-١٩٨
همزيته في الذكر	تذييل	بيت واحد	٢٧٢	٢٤٦
بائيته في الذكر	تذييل	بيت واحد	٢٧٤	٢٤٧

المبحث الثاني

بنية قصيدة المديح النبوي
في خطاب أبي مسلم الشعري

الشكل والمضمون

لسنا من المبالغة أو الادعاء في شيء، إذا ما استشهدنا في مطلع هذا المبحث ببعض مقالة (النجدي) محقق ديوان أبي مسلم البهلاني (ط1) في مديح الشاعر للنبي عليه الصلاة والسلام، وكان النجدي عرض لغرض المديح والرثاء عند الشاعر، فامتدح صدقه واقتصاده في الإطراء، وحفاظه على شخصيته، فلا يفرط فيها، فتذهب في غمرة الثناء والإعجاب، ونفذ من ذلك إلى مديحه للرسول عليه الصلاة والسلام، فقال: «أما مدح الرسول عليه السلام، فله شأن غير الشأن، وهو فيه غيره في سائر المدح، إنّ مدحه في الرسول عليه السلام لا تشوبه شائبة، ولا تحده حدود، إنه فيه يرسل نفسه على سجيتها فتجيئه منه بما يحب ويرضى، من كل معنى شريف، وقول بليغ...»[23]، فهذه المقالة لا تُحمَل على العبث أو التلاعب بالحقائق أو محاولة تزيين المقدمة، وحشد الطاقات الإبداعية فيها فليس شيء من ذلك بل انها حصحصة الحق، ومقالة الصدق، في محب تجردّ عن نفسه، وغاب عن صفاته، وأفنى ذاته في ذاته، فليس ثمة إلا الحبيب، به ينطق، وعنه يتكلم إن ظهر ظهر بنوره، وإن غاب ففي مقام شهوده، ولنصغِ إليه يخاطب النبي الكريم ﷺ[24].

أنوار حبّك فـي قلبي قد انطبعت	جبلّة كانطباع الشمس في القمر
مـا زال حبّك في روحي يخامرها	حتى تجرّدت عن عيني وعن أثري
ذهلت عن كلِّ شيء مذ علقت به	فلا أفرق بين الصفو والكدر
لا أحسـب الروح إلا أنها خلِقَتْ	من الهوى، فاختفت عن عالم الصور

23 ديوان أبي مسلم البهلاني، ت: النجدي ناصف، المقدمة، ص ف.
24 ديوان أبي مسلم البهلاني، إصدار وزارة التراث القومي والثقافية ص 260.

لا أحسبنا بُعَيْدَ هذه التجليات الوجدانية، والرقائق الإيمانية، مما عبر عنه الصوفية، وأرباب السلوك إلى الله بمقام الفناء، أو مقام الشهود، أو مقام الرضا، في شيء من الاعتراض على شاهد بالحق أدلى بشهادته في مديح الشاعر للنبي عليه الصلاة والسلام، ولو أننا وقفنا عند الصلات الشرعية لما أبداه الشاعر من لواعج حبه وحنينه، وفنائه عن ذاته، وظهوره بنبيّه، لرأيناه يتبوأ مقام الرضا بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ ﷺ نبياً ورسولاً، إذ من لوازم الرضا بسيدنا محمد ﷺ نبياً ورسولاً أن يتخذ شخصيته مثلاً أعلى، وأسوة حسنة، فيتبع هواه، ويقتفي أثره، ويتحلى بسنته، ويجاهد هوى نفسه، حتى يكون أحب إليه من والده وولده ونفسه والناس أجمعين، كما دعا إلى ذلك عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون إليه أحب من والده وولده والناس أجمعين»[25]. وبذا نطقت أبيات الشاعر، إن لم تكن تدرجت في مسالك أخرى من الحب والوجد وشهود ذات المحبوب عليه الصلاة والسلام.

يمكننا بعد هذه الملامسة الروحانية لأشواق الشاعر، وحبه وتقديره لشخص النبي الكريم أن نتساءل عن الطريقة التي اختطها، والكيفية التي تبناها في التعبير عن حبه وولائه لشخص النبي عليه الصلاة والسلام؛ كيف صاغ قصيدته؟ وكيف أدّى معانيه، وعبر عن مكنون عاطفته، وأبرز صوره؟ وما هي البنى اللفظية، والمعجمية، والموسيقية التي تبناها؟ وما هو الجديد الذي جاء به؟ ولا سيما أنه سُبق إلى هذا الفن؛ إذا حطّ الكثيرون برواحلهم بباب رسول الله ﷺ، وامتدحوه حال حياته وبعد وفاته، وأبانوا عن أشواقهم ومواجدهم جيلاً بعد جيل.

مهما يكن فالإجابة عن التساؤلات المطروحة تضعنا أمام بنية قصيدة المديح النبوي في خطاب أبي مسلم الشعري، شكلاً ومضموناً، صياغة وأسلوباً، وهو غاية ما ننشده من هذا المبحث، والذي يليه، ولعل من المفيد أن نلج هذا الباب بشيء من التعريف والتاريخ الأدبي الموجز لفن المديح النبوي فمثل هذا العمل يغني البحث، ويفيد في عقد الموازنات، والمقارنات بين ما قدمه السابقون وما أفاد به المتأخرون أمثال أبي مسلم، ويفيد أيضاً في تلمس مواضع التجديد الشكلي والمضموني فيما نظمه الشاعر من مديح نبوي كريم.

25 حقائق عن التصرف ص 365.

المديح النبوي
(تعريف وتاريخ)

فالمدائح النبوية فن من فنون الشعر التي أذاعها التصوف، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع؟ لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص[26]، ومن أقدم ما به مدح الرسول ﷺ بـ(دالية الأعشى) - إن صحت نسبتها إليه[27] - والتي يقول في مطلعها[28]:

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا   وعادك ما عاد السليمَ المسهَّدا
وما ذاك من عشق النساء، وإنما   تناسيت قبل اليوم خُلَّةَ مَهْدَدَا

إلى أن يقول مخاطباً ناقته:

متى ما تُناخي عند باب ابن هاشم   تُراجى وتَلْقَى من فواضله نَدَى

غير أنها لم تتضمن شروط المديح النبوي، فالأعشى لم يقل هذا الشعر، وهو صادق النية في مدح الرسول ﷺ، إنما كانت محاولة أراد منها التقرب من نبي الإسلام، والتكسب، وليست قصيدته أثراً لعاطفة دينية قوية حتى تلحق بالمدائح النبوية، وكان لأبي طالب عبد مناف بن عبد المطلب غير قصيدة في ذلك[29]، ثم كانت مدائح حسان بن ثابت في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، وبعد وفاته، ويلاحظ هنا، أنّ ما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء، ولكنه في الرسول يسمى مدحاً، كأنهم لحظوا أن الرسول ﷺ موصول الحياة، وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء، ويمكن القول إنهم ميزوا في شعر حسان حالين من الثناء، ما كان في حياة النبي

26 مختارات من الشعر العربي القديم، تأليف معاذ السر طاوي ومرّوح الرفاعي، عمان - الأردن، ط1 ص142 (عن المدائح النبوية د. زكي مبارك).
27 العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ص 341.
28 السيرة النبوية، لابن هشام، قدم لها وعلق عليها: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل بيروت (1407هـ/1987م) 25/2.
29 البديعيات في الأدب العربي، د/ علي أبو زيد، عالم الكتب، بيروت، دمشق (1403هـ/1983م) ص 8 أو انظر السيرة 245/1.

الكريم، وما جاء في أعقاب وفاته، لذلك نراهم يقولون: «قال حسان بن ثابت يرثي النبي ﷺ» بخلاف ما يقع من شاعر يلد بعد وفاة النبي الكريم، فإن ثناءه عليه مديح لا رثاء، لأنه لا يقصد به إلى إعلان الحزن والتفجع وإنما يريد بمدحته التقرب إلى الله بنشر محاسن الدين والثناء على شمائل الرسول ﷺ[30].

ويعدون من ذلك أيضاً بردة كعب بن زهير:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم عندها لم يجز مكبول

فهي، وإن اكتنفتها رغبة ملحة من الشاعر للنجاة من القتل، ولكنها في عمومها من قبيل مديح النبي عليه الصلاة والسلام إلى غير ذلك من هذه القصائد التي استمرت تحبو إلى أن قيض لها أن تصبح خلقاً سوياً يسر الناظرين، ويتمايل لسماعه السامعون، ويتداعى الشعراء إلى التقليد والمحاكاة والمعارضة بعده على يد البوصيري (ت696هـ) في بردته ذات مطلع:

أمن تذكر جيران بذي سَلم   مزجتَ دمعاً جرى من مقلة بدم»

إذاً أصبحت هذه القصيدة المثل الكامل الذي يحتذى للمدحة النبوية، على نهجها يسير المادحون، وبمقوماتها يهتدون، وقد يحسن بنا التذكير بسبب نظمها إقامة لعرى الاتصال بينها وبين أول بديعية ظهرت في الشعر العربي متأثرة بما سنه الشاعر البوصيري في هذه القصيدة، والتي كان سبب نظمها ما حدّث به البوصيري، قال: «كنت قد نظمت قصائد في مدح رسول الله ﷺ... ثم اتفق بعد ذلك أن أصابني فالج أبطل نصفي، ففكرت في عمل قصيدتي هذه فعملتها، واستشفعت بها إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررت إنشادها، ودعوت، وتوسلت، ونمت، فرأيت النبي ﷺ، فمسح وجهي بيده المباركة وألقى عليَّ بردة، فانتبهت، ووجدت فيَّ نهضة، فقمت، وخرجت من بيتي...»[31] وقد جاءت عدة هذه القصيدة مئة وستين بيتاً، على البحر البسيط، وروي الميم المكسورة[32].

30 مختارات من الشعر العربي ص 141، عن كتاب (المدائح النبوية، د. زكي مبارك).
31 المرجع السابق، ص 20.
32 المرجع السابق، ص 21.

البديعيات

(تعريفها، علاقتها بالمديح النبوي)

فهذه الاستطرادة كان لا بدَّ منها للربط بين المدائح النبوية التي استوت خلقاً تاماً على يد البوصيري، وفن آخر هو البديعيات، وهي «فن شعري طريف بزغ نجمه في القرن الثامن الهجري، وتلألأ على صفحات التراث في القرون المتتالية، فجمع بين المتعة والفائدة، ووافق بين الذوق والإحساس، فلا تعدم فيه صورة جميلة، أو أبياتاً رائعة، أو تعبيراً عفوياً وعاطفة صادقة[33]. وفي تعريف آخر يجمع عناصرها العلمية يمكن القول إنها «مجموعة من القصائد ظهرت في القرن الثامن الهجري، واستمرت حتى القرن الرابع عشر، غرضها المديح النبوي، وغايتها جمع أنواع البديع ضمن أبياتها، في كلّ بيت، يصبّ ذلك كلّه في قالب من البحر البسيط، وروي الميم المكسورة[34] وغني عن التعريف أن هذا القالب اشتهر من خلال (بردة) البوصيري، أو برأته، إذ كانت هذه القصيدة سبباً لبرئه من المرض.

وقد اختلف الباحثون في أولية البديعيات، واتفق معظمهم أنها جاءت متأثرة ببردة البوصيري، وقد عرض د. علي أبو زيد لهذا الخلاف، ورجّح أن تكون البديعية الأولى للشاعر عبد العزيز بن سرايا صفي الدين الحلي المتوفى سنة (750هـ) مدعماً رأيه بكثير من الحجج والبراهين، ولا سيما أن الحلي كان قد عقد العزم على صنع مؤلف يضم أشتات البديع مع إضافات واستنباطات جديدة، فما منعه إلا الفالج فانكفأ يلتجئ إلى الله متشفعاً برسوله الكريم فنظم مدحة نبوية، صنيع البوصيري، وضمن قالبه المشار إليه آنفاً، غير أنه طرّزها بأنواع البديع موجداً بذلك فناً جديداً في الشعر العربي، عرف باسم (البديعيات)[35]، ومطلع بديعته، وفيها

33 المرجع السابق، ص 49.
34 السابق، ص 6.
35 البديعيات، بتصرف، وانظر ما ورد. في مقدمة الكتاب وفصليه الأول والثاني.

أكثر من نوع بديعي من نحو براعة المطلع، والجناس المركب والمطلق:

إن جئت سلعاً فسل عن جيرة العلم   واقر السلامَ علىـــ عرب بذي سلم

في حين رأى الدكتور زكي مبارك أن محمد بن أحمد المعروف بابن جابر الأندلسي الضرير، كان قد افتتن بقصيدة البردة، وظهر أثرها في شعره، إلى أن تمَّ له معارضتها ببديعيته التي حمّل كل بيت منها نوعاً من أنواع البديع، ومطلعها:

بطيبــة أنــزل ويمــم سـيد الأمــم   وانشــر له المـدح وانثر أطيب الكلم

وخالف صاحب الصبغ صاحبيه، وسائر الجمهور، حين ردّ أولية البديعيات إلى الشاعر علي بن عثمان أمين الدين الإربلي توفي (670هـ) في قصيدته التي مطلعها:

«بعــضـــ هــذا الـدلال والإدلال   حالـــي الهجـر والتجنبـــ حالــي

منكراً تفرع هذا الفن عن المديح النبوي، لأنّ موضوع هذه القصيدة لم يكن مديحاً نبوياً[36]، وقد يكون الإربلي سبق إلى شيء من البديع حملته أبياته الشعرية، بيد أن أوليته هذه، لا تلغي ولا بحال من الأحوال علاقة القصائد التي جاءت بعدها بفن المديح النبوي، إضافة إلى ما طرحته من أنواع البديع، وضمن قالب البوصيري الذي احتذاه الشعراء من بعده (البحر البسيط، وروي الميم المكسورة).

36 الصبغ البديعي ص378.

قصيدة أبي مسلم

(الشكل):

ما تقدمنا به من تعريف وتأريخ موجز لفن المدائح النبوية، وفن البديعيات في الأدب العربي هيأ لنا السبيل لنقف على ما قدّمه أبو مسلم من مديح نبوي، نحاول فيما يلي أن نبوأه مكانه الصحيح، ولا سيما أنه جاء بآخره من هذه الفنون فشاعرنا - كما هو معروف - توفي في النصف الأول من القرن الرابع عشر للهجرة (1339هـ/1920م) أي أنه سُبِق بأجيال وأجيال لا حصر لها ممن نبغ في هذا الفن أو ذاك، وهذا من شأنه أن يجعل مهمة الشاعر عسيرة، إذ ينبغي لأمثال أبي مسلم من رواد الإصلاح ودعاة النهضة أن يكون لهم باع متميز في مثل هذه الموضوعات، إنها وإن كانت ذات منحى ديني، وصبغة روحية، غير أنها تقال في أمة صنعها الدين، وصاغتها القيم الروحية، فكانت أمة الدين والروح، وأمة القيم والحضارة.

هذا ولا تخلو مدائح أبي مسلم من مثل هذا التوجه الذي يميزه عن غيره من الشعراء، ويميز معه الأمة التي ينتمي إليها، ولا سيما إزاء أعدائها الذين يحاولون الكيد لها دائماً أبداً، ولنصغِ إليه يتوجه إلى الله بهذا الدعاء الذي جاء بآخره من (الكلم الطيب) في معرض توسله وتشفعه بالرسول الكريم صلوات الله عليه، يقول:

وأيـد الإسـلام بالكرامـة ... والمجـد والعز والاسـتقامة
وارفـع علـى أضـداده أعلامه ... ونكسـن الشـرك من والاه
بحـق لا إله إلا الله
واكسـر قوى أعدائه معجلاً ... متأصِـلاً شـأفتهم مذَلـلاً
حتّى متى الإسـلام منهم مبتلى ... نصرك يا غوثـاه يـا غوثاه
بحق لا إلـه إلا الله

لا شك أنّ دلالة الاستشهاد السابق واضحة في الكشف عن هوية الشاعر، والشكل الذي تبناه في قصائده المدحية، ولا أعني بما ذكرته التخميس الشعري ونحوه، مما قد لجأ إليه الشاعر في أكثر من قصيدة، وإنما المراد الإشارة إلى تغليب الشاعر للمضمون على الشكل، وهو مما يطالعنا في كل قصائده المدحية، قصيدته التي خصّ بها الرسول عليه الصلاة والسلام، وفي التخميسات التي جاءت توسيطاً لقصيدته (مقدس النفوس) وفي أبياته التي تجاوزت الستين تذييلاً لقصيدته (الله جل جلاله وسائر التذييلات الشعرية التي خصّها للمديح النبوي والدعاء والتشفع بحضرة الرسول عليه الصلاة والسلام، فالشاعر «ينظم شعره، وهو غافل عن نفسه، لا يفكر فيه، ولا يلقي باله إليه... وأشد ما يكون ذلك وضوحاً، وأيسر ما يكون مطلباً في الشعر العاطفي الذي يعبر به الشاعر عن مشاعره، ومواجده التي تبعث من نفسه فيضاً لا نزاً، وذوباً لا عصراً فذلك هو الشعر في أصالته وحقيقة معناه: يتلاقى فيه الصدق والتفتح والإشراق، فتتراءى مواجد الشاعر، وما يجيش به صدره من رغائب وأشواق وما تطمح إليه نفسه من أمل، وما تنطوي عليه من ألم»[37].

وهذا ما يؤول لنا عزوف الشاعر عن بعض الشكليات التي تميزت بها قصائد المديح النبوي، أو البديعيات، وكأنيّ به امتطى منصة التجديد في هذا الفن الشعري، إذ لم يبدأ بذكر الديار والدمن والآثار، ولم ينسب أو يشبب، ولم يعرض لمشهد الصيد وفلوات الصحراء، ولم يخرج من ذلك كله إلى المديح مما توافر في معظم القصائد المدحية، ولم يسلك مسالك أهل المديح النبوي أو البديعيات في ذكر سلع وذي سلم، ولم يطأ ثرى الحجاز، بل مضى غير حافل بقالب البوصيري ومن جاء بعده من جعلهم البسيط بحراً، والميم المكسورة رويا، أو ذكرهم للمحسنات البديعية، ووجوهها المختلفة من قديم ومحدث، ليقذف نفسه في الحضرة المحمدية، ويرتمي في أحضانها القدسية، في حالة من الوجد، والغفلة عن النفس، والاستغاثة والصدق الواقعي والفني، مما يذكرنا بخواص شعراء المديح النبوي، ومتقدميهم، ويدفعنا للتنويه بمقام الشاعر الرفيع في هذا الفن، وهو قوله[38]:

غوث الوجود أغثني ضاق مصطبري ... سر الوجود استلمني من يد الخطر

37 المصدر السابق، المقدمة، ص (س).

38 ديوان أبي مسلم البهلاني، إصدار وزارة التراث، ص 259، مطلع قصيدته في مدح النبي عليه الصلاة والسلام.

نور الوجود تداركني فقد عميت بصيرتي في ظلام العين والأثر

روح الوجود حياتي إنها ذهبت من جهلها بين سمع الكون والبصر

تكرار الذاكرين، ومناغاة الحبيب ومناجاته بتكرار أسمائه وصفاته (غوث الوجود، نور الوجود، روح الوجود) أليس شكلاً جديداً من المديح، يتماوج من خلاله المضمون الإيماني الصادق؟ بلى، وانظر عبق أنفاسه لولا حبّها الصادق لربها ونبيّها ما ذلت وما خضعت، بيد أن أبا مسلم بسلوكه وصوفيته يدرك أن تذلّله لنبيّه عزّ ورفعة وسيادة، فهذا ونحوه من المضمون الروحاني الرائع يجعلنا نستحث الخطأ للوقوف عليه والولوج إلى محرابه بدءاً من مقدمة القصيدة المدحية، وما يليها من موضوع وختام، مما سنقف عليه تباعاً في بقية هذا المبحث.

قصيدة أبي مسلم

(المضمون):

ربما يلحظ الدارس لهذا الوضع شيئاً من التداخل الاصطلاحي بين ما هو شكلي ومضموني، ولا سيما أننا سنعرض لمقدمة القصيدة وموضوعها وختامها، مما يوهم بالشكلية، على حين أنّ المقصود هو البنية الداخلية بما تشتمل عليه من مضامين وأفكار تتنامى وتتلاقى لتشكل البنية العامة لقصيدة المديح، فالمضمون في عمومه هو الفكرة الموجودة داخل القصيدة، وهذه الفكرة تحمل معنى معيناً يقصده الشاعر، وقد تشمل القصيدة على عدد من الأفكار فتكثر معانيها، كما أنّ المضمون يستوعب الغاية التي يرمي إليها الشاعر، والرمز الذي يقصده حينما تكون القصيدة رمزية، ويستوعب كذلك الأذكار التي يكررها الشاعر، لفظاً ومعنى، كما هي حالة شاعرنا، وهذا لا يعني خلو مدحة الشاعر من مخطط ومنهج مرسوم تجده في مقدمة القصيدة وموضوعها وختامها، فالتكرار المشار إليه لا يرد لمجرد التكرار، بل للإحاطة بدقائق المعاني الروحية بما يناسب مقام الألوهية، أو مقام النبوة وكله مما سنعرض له بشيء من المقارنات مع الشعر العربي، ليستّدل ما أمكن على الجديد في صنيع الشاعر، على أننا سنبدأ من المقدمة وبنائها، وهي مما لاقى عناية النقاد والشعراء على حد سواء.

أ - بناء المقدمة:

لم ينهج أبو مسلم منهج الشعراء الجاهليين في قصائدهم المدحية على النحو الذي ذكره ابن قتيبة ملمعاً إلى مقدمتها، مما بدأ به الشعراء العرب القدامى، وتتابع عليه معظمهم إلى أزمنة متأخرة واقعاً إبداعياً ثم تقليداً فنياً، إذ ذكر «أن مقصد القصيد إنما ابتدأ بذكر الديار والدمن والآثار، فبكى وشكا وخاطب الربع،

واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها.. ثم وصل ذلك بالنسيب، فشكا شدة الوجد، وألم الفراق، وفرط الصبابة والشوق ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجود، ويستدعي إصغاء الأسماع إليه...»[39].

ولم ينهج أبو مسلم كذلك منهج من جاء في أعقابهم من المخضرمين أو الإسلاميين ممن أولوا المديح شاناً في أشعارهم، فصاغوا قصائدهم على المنهج السابق ولا سيما في مقدماتهم التي أخذت بحظ وافر من ذاك التوجه الطللي أو الغزلي، على نحو ما يطالعنا كعب بن زهير في مقدمة مدحته للنبي عليه الصلاة والسلام، لدى ذكره سعاد، وما اشتملت عليه من رمز وإيحاء، ويقال مثل هذا في مدائح حسان، أو قصائده ذات الأغراض المتعددة، مما قاله متأثراً بأحداث الإسلام، ومن ذلك همزيته التي نظمها قبيل فتح مكة، مرهصاً بالفتح المبين، ومطلعها[40]:

عفت ذات الأصابع فالجواء إلى عذراء منزلها خلاء

إلى أن يقول:

فدع هذا، ولكن من لطيف يورّقني إذا ذهب العشاء
لشعثاءَ التي قد تيّمته فليس لقلبه منها شفاء

ومن هذا القبيل دالياته[41] في رثاء النبي الكريم، غير أنه انكفأ فيها إلى تركة النبي من منبر ومصلى مسجد ووحي، ونحو ذلك معرضاً عن التشبيب والغزل، مستشعراً هول الموقف، باكياً متفجعاً، ويقول في مطلع إحداها:

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتَهْمَد
ولا تنمحي الآيات من دار حرمةٍ بها منبر الهادي الذي كان يصعد

ولو تجاوزنا عصر صدر الإسلام أو الدولة الأموية، إذ بقيت مقدماتهم قريبة مما ذكرناه، إلى العباسيين وما أحدثوه في مقدمة القصيدة العربية من تغيير وتبديل،

39 الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري، ص 27.
40 ديوان حسان بن ثابت، ت السيد حنفي حسنين، طبع دار المعارف، مصر 1973م، ص 71.
41 مختارات من الشعر العربي القديم، ص 144، وفيه ذكر لمطالع الداليات المشار إليها.

من نحو قصائدهم ذات المطلع الخمري، أو تلك التي تحفل مقدماتها بالحكمة مقارنين بين هذه المقدمات، ومقدمات الشاعر في مجال أذكاره ومديحه للنبي عليه الصلاة والسلام، فلن نقع على شيء من ذلك، حتى في قصيدته التي عنون له بـ(خمرة الله)[42] فقد جاء أولها وثانيها خالياً من ذكر تلك الخمرة ومستلزماتها سوى شيء من الإيحاء والرمز الخفي، وعلى وجه من التأويل، غير أنّ هذا لا يمنع من الوقوف على بعض القصائد ذات المقدمات الطلية، صنيع الجاهليين، ومن جاء في أعقابهم، مما قاله الشاعر في غير مجال الذكر أو المديح للنبي الكريم، من نحو قصيدته (المجد لا يملك عن وراثة) ومطلعها[43]:

تلك ربوع الحي في سفح النقا تلوح كالأطلال من جد البلى
أخنى عليها المر زمان حقبة وعاثت الشمأل فيها والصبا

وقد يكون من تمام هذه المقارنات الموجزة لمقدمة شاعرنا المدحية، وما قدمه شعراء المديح النبوي عبر عصور العربية أن نقف مع رواد الفن في عهودهم المتأخرة إذ تفوق هذا الفن على ما سواه، وظهر -كما أشرنا- فن آخر يعني بهذا المديح هو البديعيات، فإذا ما قمنا بذلك، فالنتائج قد تكون واحدة، وذلك أنّ أبا مسلم قال ما قاله، وهو غافل عن نفسه لا يفكر في شعره، ولا يلقي باله إليه، قاله -كما يقال- وهو في عالم آخر فجاء نسيجه موافقاً مقامه وحاله، وجاءت مقدمة قصيدته معبرة عن ذلك أشد التعبير، نعم قد لا نقع على أمثال هذا المطلع لعمر بن الفارض الصوفي المشهور[44]:

هل نار ليلى بدت ليلاً بذي سلم أم بارق لاح في الزوراء فالعلم
أرواح نعمان هلا نسمة سحراً وماء وجرة هلا نهلة بفم

أو مطلع ميميته الأخرى في ذكر الخمرة الإلهية[45]:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

42 ديوان أبي مسلم البهلاني، ط وزارة التراث القومي، ص 258.
43 المصدر السابق 270.
44 ديوان ابن الفارض، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت، ص 74.
45 المصدر السابق، ص 82.

وقد لا نقع على أمثال (برأة البوصيري)، أو مطلع البديعيات التي تجاوزت التسعين[46]، وقد سبق الاستشهاد ببعض مطالعها في هذا البحث، أو تلك التي عارضها بعض معاصري الشاعر من نحو همزية البوصيري[47]: (من الخفيف)

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

وكان شوقي قد عارضها بهمزيته المشهورة، إنه وإن جاء البحران مختلفين، مما يقلل من شروط المعارضة[48] غير أن تأثر شوقي غير خاف البتة، وهو قوله: (من الكامل)[49]

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثناء

وبالنظر إلى القصيدتين: همزية البوصيري، وهمزية شوقي، ولا سيما ما يتعلق بالتجربة الشعورية، ودرجة العاطفة، فإننا نلحظ عموماً انطفاء جذوة العاطفة عند شوقي إزاء مقارنتها بعاطفة البوصيري واتقادها وهذا من عوائد التقليد، وسبب من تلك الصنعة التي اكتنفت أبيات شوقي من أولها إلى آخرها، على الرغم مما يكنّه الشاعر لحضرة النبي ﷺ من إعجاب وحب وتقدير. فهذا ونحوه يدفعنا ثانية باتجاه أبي مسلم لنتعرف مقدمته المدحية؛ كيف صاغها، وكيف بناها، ما دام لم يقلد فيها شعراء العربية الذين امتدحوا النبي الكريم، أو أولئك النفر الذين غلب على شعرهم فن المديح النبوي، أو كانت لهم إسهاماتهم فيما قدموه لنا من بديعيات التزمت شكليات ومضامين المديح النبوي.

وفي محاولتنا الإجابة عما سبق لإكساء مقدمة أبي مسلم الشعرية ثوبها الحقيقي، نذكِّر بـ(مقتضى الحال) عند البلاغيين، وما يقال من أنّه (لكل مقام مقال) لننفذ إلى حال الشاعر ومقامه، فهما المعنيان في مقدمته، عنهما نطق، وبهما نظم، ولم يخرج عن دائرتهما توحيداً لله أو توجهاً إلى رسول الله ﷺ.

وهذا ما ميّز الشاعر عن غيره ممن سبق، أو جاء بعده، فالملاحظ أنه في

46 البديعيات، ص 178.

47 ديوان البوصيري، ت محمد سيد كيلاني، مطبعة البابي الحلبي، مصر، د.ت ص 49.

48 الشوقيات، أحمد شوقي، دار الفكر، بيروت، 1418هـ/1997م، مجلد أول ص34.

49 المرجع السابق نفسه، مجلد أول، ص 34.

قصيدته التي خصّها للمديح النبوي نسيان الشاعر لنفسه، وانشغاله عن مستلزمات شعره، أو ما تكاثف عبر مئات السنين من لطائف المديح النبوي مما نظمه الشعراء تترى، ولا سيما روي الميم المكسور، والبحر البسيط، أو ذكر معاهد الحجاز، وخمرة الذكر، ونحو ذلك، مما تناوله الشاعر في أحايين قليلة، وأعرض عنه مراراً، ليعبر من خلال حاله، إذا دهته الدواهي، ونزلت بساحته النوازل والفواقر، ولم يبق إلا غوث الوجود، ونوره، وروحه، وأنسه، وأمنه، القاسم، أنت لها، حال الاستغاثة، ومقام التضرع والتشفع إلى الله عز وجل بالمصطفى عليه الصلاة والسلام، يقول[50]:

غوث الوجود أغثني ضاق مصطبري ... سرّ الوجود استلمني من يد الخطر
نور الوجود تداركني فقد عَميت ... بصيرتي في ظلام العين والأثر
روح الوجود حياتي إنها ذهبت ... من جهلها بين سمع الكون والبصر
روح الوجود دهى الكرب العظيم وفي ... أنفاس روحك روح المحرج الحصر
أنس الوجود قد استوحشت من زللي ... وأنت أنسي في وردي وفي صدري
أمن الوجود أجرني من مخاوف ما ... أحرزت نفسي منها في حمى الحذر
عين الوجود ترى بؤسي ونازلتي ... وفي محالك إنقاذي من الضرر
عزّ الوجود بعزّ الله أنت لها ... فواقر درست أعيانها أثرى

وكأنّه بعد هذه الدفقة الشعورية من الاستغاثة برسول الله، وذكر حاله، وما ألم به تذكر شيئاً من لوازم المديح؛ إذ يتوجه الشاعر بناقته التي أضناها السفر إلى الممدوح طمعاً في جائزته ونواله، يعود الشاعر ليتوجه إلى رسول الله ﷺ بنازلته التي ألمت به، بدلاً من ناقته، ويعد النفس بالفوز والجائزة والنصر والفرج، وهو قوله في البيت التاسع:

وجهت نحو رسول الله نازلتي ... وقلت يا نفس حمّ النصر فانتظري

ونحو هذا يقال في قصيدته المطولة التي خصّها لأسماء الله الحسنى المروية،

50 ديوان أبي مسلم البهلاني، طبع وزارة التراث، ص 259.

وغير المروية، ولا سيما ما وقع عليه في كتاب الله عزّ وجل، وكان ختمها بالصلاة على النبي والثناء عليه، في تعداد من الأبيات بلغ ستة وستين بيتاً، قدم له بوحي حاله ومقامه الشهودي باثنين وعشرين بيتاً، لو محصّنا فيها غاية التمحيص لم نجد غير ذكر الله الذي بدأه من قبلِ اسماً تلو اسم، وبلغ فيه المئات من الأبيات، حال الصوفي، ومقام السالك إلى الله، المردد دائماً أبداً اسم الله، الناظر بعين بصيرته صفاتِ الله وكماله وقدرته وجلاله وجماله، فهذا الذكر الذي استغرقه في البداية بقي يفيض على الشاعر، حتى ولو انتقل إلى حضرة النبي عليه الصلاة والسلام ليمدحه، ويثني عليه، ولنصغِ إليه طالباً من الله عز وجل أن يصلي بعدد أسرار أسمائه الظاهرة والباطنة، وبعدد أسرار جاهها في النوائب والملمات، وبعدد أسرار نورها، وعدّ ما في بحورها، وعدّ شؤونها، وسيب فيوضها... اثنان وعشرون بيتاً في جوهر أسماء الله، فهذا كله صلى به على النبي الكريم ووجهه إليه في البيت الثالث والعشرين من هذه الخاتمة، وما ذاك إلا بمقتضى حال الذكر الذي كان الشاعر يعيش وقائعه، ويستشعر فيه سعادته يقول[51]:

١ - وصل وسلم عدّ أسرار كلّ ما	لذاتك من إسم بدا أو بخفية
٢ - وصل وسلم عدّ أسرار جاهها	ومقدارها في الشأن والعظيمة
٣ -	....
٣٢ - على المصطفى الهادي إليك محمد	رسولك ختم الرسل خير البرية

ونحو هذا يقال في خاتمة قصيدته (الكلم الطيب)[52] فقد جاء فيها ذكر النبي ومديحه دعاء وتوسلا، كما هي حاله من الدعاء والذكر في هذه القصيدة من أولها إلى آخرها، وإن عرض فيها لكثير من صفات المولى عز وجل.

وأخيراً، فالمقدمة في عمومها وأنواعها ليست فصلة منفصلة، أو قطعة منفردة عن سائر أقسام القصيدة، بل هي بابها ومدخلها إلى موضوعها ومضمونها، وطريقها إلى ختامها، ومن هنا اشترط النقاد فيها براعة الاستهلال، وحسن المطلع، والتصريع

51 ديوان أبي مسلم البهلاني، ط وزارة التراث القومي، ص 112.
52 المصدر السابق، ص 235.

العروضي وسوى ذلك[53]، مما اشتملت عليه مقدمة قصيدة أبي مسلم في مديح النبي الكريم وعبرت عنه أحسن تعبير، أما كيف تجاوزها إلى موضوع القصيدة، وما هو الموضوع، وما هي أقسامه والأفكار المطروحة فيه، وكيف صاغه الشاعر، وعمل على تنميته والارتقاء فيه، وبث الروح في أوساطه، حتى استوى خلقاً تاماً، فذاك مما سنقف عليه في الفقرة الآتية:

ب - بناء الموضوع:

جرت عادة الشعراء في قصائد المديح ممن أدرك منهم الجاهلية، أو جاء في أعقابهم، أو ممن تأخر زمنه إلى عهود متأخرة، وربما لحق بهؤلاء من انبرى للمديح النبوي، ولا سيما الأوائل منهم إيجاب الحقوق على الممدوح، وكان منهجهم في ذلك مما عبر عنه ابن قتيبة في حديثه عن منهج القصيدة العربية، فذكر أنّ الشاعر إذا ما استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع من خلال مقدمته الغزلية، مما يفتح قلب سامعه، ويلفت انتباهه «عقب بإيجاب الحقوق، فرحل في شعره وشكا النصب والسهرَ وسرى الليل، وحرَّ الهجير، وانضاء الرحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء، وذمامة التأميل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في المسير، بدأ في المديح، فبعثه على المكافأة، وهزّه للسماح، وفضله على الأشباه، وصغر في قدره الجزيل»[54].

فمثل هذا التنسيق والترتيب للأفكار، والتخلص من موضوع إلى موضوع، تراه مائلاً في معلقة النابغة الذبياني «إذ يخرج من النسيب إلى وصف ناقته خروجاً تسنده المناسبة، حتى إذا أتم هذا الوصف قال:

فتلك تبلغني النعمان إنّ له ... فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد»

وتراه مائلاً في قصائد الأعشى، حتى في قصيدته التي قالها في مديح النبيّ، فإنه تبع أقرانه الجاهليين، وأحسن التخلص إلى المديح، وذلك قوله مخاطباً ناقته[55]:

53 انظر العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني، ت محمد الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1955م ص، ومقدمة القصيدة في العصر الجاهلي، د. حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، 1987م ص 83 وما بعدها.
54 الشعر والشعراء ص 28.
55 سبق الاستشهاد به.

متى تُناخي عند بابِ ابن هاشم   تُراجي وتَلْقَي من فواضله نَدَى

وتراه ماثلاً في قصيدة أبي مسلم، إذا خرج من مقدمته إلى سائر الموضوع خروجاً مناسباً فيه من التنسيق وترتيب الأفكار، وحسن التخلص الشيء الكثير، فها هو يعقب بعد استغاثته بما يشبه إيجاب الحقوق على الممدوح، إنه وإن كانت إجابة النبي الكريم من باب فضله ورحمته بالمؤمنين جميعاً بدلالة قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: 128].

فإن هذا لا يمنع من التقليد الفني الذي اتبعه الشاعر، أو لم يسبق كعب ابن زهير إلى عدد من التقاليد الفنية الجاهلية، وبها صاغ بردته بدءاً من مطلعها المشهور:

بانت سعاد فقلبي اليوم مبتول   متيم عندها لم يجز مكبول

وكذلك أبو مسلم، فهو وإن بدأ قصيدته بوحي حاله ومقامه في التضرع والاستغاثة برسول الله، والاستنجاد به عليه الصلاة والسلام، فإنه عاد ليلتزم خط التقليد في خروجه من المقدمة إلى الموضوع، فدخله بما يشبه إيجاب الحقوق على الممدوح، وهو قوله المشار إليه سابقاً:

وجهت نحو رسول الله نازلتي   وقلت يا نفسي حمّ النصر فانتظري

هذا، ويمكن للباحث أن يلاحظ بعيد هذا الجسر الفني الذي انتقل من خلاله الشاعر من المقدمة إلى موضوع القصيدة عدداً من العناصر والمحاور، أقام من خلالها الشاعر بنية الموضوع ومضمونه، وهو الجزء الأساسي في القصيدة، بمنزلة الأعمدة من البنيان، وبمنزلة القلب من الإنسان، يتدفق بالمعاني، ويدفع بها إلى الجوانب، فتزهو القصيدة، وتتلألأ بدءاً من المضمون الأول، واستغرق مع الجسر الفني «وجهت نحو رسول الله...» أحد عشر بيتاً، عرض من خلالها الشاعر حاله، وما ألم به، وما نزل بساحته مع أمله الكبير بإجابة الممدوح عليه الصلاة والسلام، فمثل هذا المعنى كرره الشاعر دون يأس أو قنوط في كل بيت من الأبيات المشار إليها، حتى لكأنّ هذا القسم عجينة واحدة، أوله يماثل آخره في «تقرير الحال، وذمامة التأميل» طرح

الواقع مع الأمل الكبير بتغييره نحو الأفضل، وهو قوله على هذه الشاكلة[56]:

أمنيـة الفـوز منـه غـير خائبـة ومطمـع النجـح منه غير منحسـر
ونـائـل الخـير منهـا غـير منقطـع وفائض البر منـه غـير منحصر
بسـطت كفي إلى فيـاض رحمته عـلى يقين بدركـ السـؤل والظفر
وقمـت ألهـج والآمـال صادقـة يا عصمـتي يا حبيب الله يـا وزري

وهكذا أحد عشر بيتاً، ولئن تساءل الباحث عن السر في عدد الأبيات، لِم كان أحد عشـر؟ ولم يكن دون ذلك أو أكثر قليلاً، فهذه حال سـرت إلى الشاعر منذ قصيدته في أسماء الله الحسنى، إذا بناها على هذا العدد يكرره وصفاً وتقديساً وتسـبيحاً لكل اسم من أسـمائه جلّ وعلا «مائة وعشرون حضرة ما ورد منها في الحديث النبوي، وما استخلصه الشاعر من آي الذكر الحكيم، رتبها على أحد عشر بيتاً بمناسـبة عدد اسمه تعالى (هو) وبمناسبة أحرف بسط اسم الجلالة لفظاً[٥٧] «ولا يخفى مراد المحقق النجدي في قوله هذا إذ يشير إلى حساب الجمل (هـ=5، و=6) فالمجموع أحد عشر وعندي أنه ربما كان متأثراً بالآية القرآنية الكريمة: ﴿ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف: ٤]. فما صاغه وصفاً لأي اسـم من أسمائه بمنزلة الكواكب السـاجدة، تمجيداً أو تقديساً لحضرته عز وجلّ، ومن خلال أسـمائه الحسنى «الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار»[٥٨] إلى آخر الأسماء.

وأما المحور الثاني، فاستغرق ستة أبيات في صفة المصطفى عليه الصلاة والسلام[59]، بما وصفه به الحق سبحانه وتعالى، مما ورد في الكتاب والسنة وبعضه مما اشتهر في الآثار الضعيفة، فهو المبعوث رحمة للعالمين، وهو قوله:

56 ديوان أبي مسلم البهلاني، طبع وزارة التراث، ص 259.
57 ديوان أبي مسلم البهلاني، ت النجدي، ص 7.
58 السابق، ص18، وما بعدها.
59 ديوان أبي مسلم البهلاني، طبع وزارة التراث، ص 260.

يا رحمة الله يا مبعوث رأفته   يا مظهر اللطف في الأرواح والصور

وهو - كما لا يخفى - مضمون قوله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107] وهو آخر الرسل، وهو قوله:

يا آخر الرسل لا تأخير مرتبة   وإنما السر مطوي عن الفكر

وهو مضمون قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 40] وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم[60] وغيرهما[61] قوله عليه الصلاة والسلام: «وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون...» وهو أول خلق الله، وهو قوله:

وأول الكل بعد الله مبتدعاً   وأول الكون عند الله في الخطر

ولهذا نظير فيما ورد في الآثار المروية من حديث جابر «وأول ما خلق الله نور نبيك يا جابر..»[62] وهو على ضعفه، مما شاع على ألسن الناس، وهو من القضايا التي تحتاج إلى تحقيق وتمحيص، فهذا ما يتعلق بشطر البيت الأول، وإما الشطر الثاني، فلا شك ولا خفاء في فضل النبي عليه الصلاة والسلام على سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله، وسلامه، وهو مضمون قوله تعالى ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [البقرة: 253] وفي الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم، والترمذي، والنسائي، قوله عليه الصلاة والسلام «فضلت على الأنبياء بست، قيل ما هن أي رسول الله، قال: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون. مثلي ومثل الأنبياء، عليهم الصلاة والسلام، كمثل رجل بنى قصراً، فأكمل بناءه، وأحسن بنيانه، إلا موضع لبنة، فنظر الناس إلى القصر، فقالوا ما أحسن بنيان هذا القصر لو تمت هذه اللبنة، إلا فكنت أنا اللبنة، إلا فكنت أنا اللبنة»[63].

60 حديث رقم (8969) مسند أحمد، وأخرجه البخاري في الجهاد والسيرة 175، وأخرجه مسلم في المساجد، ومواضع الصلاة (812-815) والفضائل 4237.

61 أخرجه كذلك الترمذي في السير 1474، والنسائي في الجهاد 3037/3038.

62 كشف الخفاء، مزيل الالباس عما اشتهر من الحديث على السنة الناس، إسماعيل بن حجر العجلوني، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405 ج1 ص311.

63 سبق تخريجه في الحاشيتين 61 - 62 السابقتين.

بيد أنّ ما ورد في هذا السياق حُمل على المبالغة، وربط بعض الإخوة الباحثين بينه وبين ما حمل على التراث الصوفي من نسبة بعض كلام القوم إلى عقيدة الحلول والاتحاد، ووحدة الوجود[64]، من نحو قول الشاعر من هذا المضمون:

يا ظاهراً بكمالات الظهور على كل الظواهر في سلطان مقتهر
يا باطناً لم تفته الباطنات ولم يدرك مقاماته علم من الفطر

ونحو ما ورد في خاتمة قصيدته في أسماء الله الحسنى، وهي من معدودات مدائحه في النبي عليه الصلاة والسلام ومنها قوله[65]:

وآثرته من بين خلقك كلهم بأن كان أصل الكائنات البديعة
وآثرته من بين خلقك كلهم بأن كان عند الله خير وسيلة

فهذا أو نحوه حمل في تفسيره على بعض نصوص ابن عربي في فتوحاته[66]، وهي نصوص تحتاج إلى دقة متناهية في فهم كنهها، والإحاطة بأسرارها، وقد لا تحمل على ظاهرها، تقدير لمقام القائل وحالة مع ربه وقد تحمل على ظاهرها، فتحدث من بلابل القول الشيء الكثير، وقد ينفذ أصحاب الغايات من خلالها لزعزعة الجانب الروحي في الإسلام، فلا يتوقفون عند بعض العبارات الملبسة وحسب، وإنما يعملون معاول الهدم في هذا الجانب الجوهري من الدين الحنيف، وهو مقام الإحسان «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك»[67].

على إنني لن أطيل في هذا الجانب لضيق المقام، وقلة الوقت، وتجنيب البحث مواضع الخلاف الذي يمكن تجنبه والابتعاد عنه. لأمر كان الشاعر نائياً عنه أصلاً وفطرة، عقيدة ومسلكاً، إذ لا يجوز في حقه، وحق أمثاله من أهل الإيمان مثل هذا الاعتقاد، والنظم بمقتضاه، إن هو إلا نظم جاري به بعض القوم في ألفاظهم، وأخرجه مخارج الشعراء أمثال البوصيري في قوله[68]:

64 أبو مسلم الرواحي (حسان) د/محمد بن صالح ناصر، ص79، وما بعدها.
65 ديوان أبي مسلم البهلاني، ط وزارة التراث ص 113.
66 أبو مسلم الرواحي (حسان عمان ص 81-82.
67 جزء من حديث أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنظر حقائق عن التصوف ص22.
68 ديوان البوصيري، ص242، 241.

أعيا الورى فهم معناه فليس يرَى في القرْب والبعد فيه غير منْفحِمِ
وكلّ آيٍ أتي الرسل الكرام بها فإنما اتصلت من نوره بهمِ
فإنّه شمس فضل هم كواكبها يظهرْنَ أنوارها للناس في الظلم

وأمثال شوقي في قوله أيضاً[69]:

نظمت أسامي الرسل فهي صحيفة في اللوح واسم محمد طغراء
اسم الجلالة في جديد حروفه ألف هنالك واسم (طه) الباء

وأخيراً انقل في هذا المجال ما قاله أحد كبار أئمة التصوف في انتقائه وانتفاء السلوك من هذا المزلق الخطر، والاعتقاد الفاسد، يقول الإمام الشعراني رحمه الله تعالى: «لعمري إذا كان عباد الأوثان لم يتجرؤوا على أن يجعلوا آلهتهم عين الله، بل قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، فكيف يظن بأولياء الله تعالى إنهم يدعون الاتحاد بالحق، على حد ما تتعقله العقول الضعيفة؟ هذا كالمحال في حقهم رضي الله تعالى عنهم، إذا ما من ولي إلا وهو يعلم إن حقيقته تعالى مخالفة لسائر الحقائق، وإنها خارجة عن جميع معلومات الخلائق، لأن الله بكل شيء محيط»(70).

والمضمون أو المحور الثالث والأخير من هذه القصيدة خمسة عشر بيتاً قالها الشاعر في وصف تباريح الهوى، ولواعج الشوق والحنين إلى حضرة النبي الكريم، وكان بدأها بقوله[71]:

أنوار حبك في قلبي قد انطبقت جبلة كانطباع الشمس في القمر
ما زال حبك في روحي يخامرها حتى تجردت عن عيني وعن أثري

وهو في هذا التقسيم للقصيدة، أو التقديم والتأخير يخالف من سبقه من الشعراء، فالبوصيري على سبيل المثال جاء حديثه عن الحب وبيان أثره في نفسه، ودفاعه عن هذا الحب والرد على اللائمين والناصحين له في القسم الأول

69 الشوقيات ص 34.
70 حقائق عن التصرف، ص541.
71 ديوان أبي مسلم البهلاني، ط وزارة التراث ص 260.

من القصيدة مما يلي بيتي المطلع، وهو قوله في ثالثهما[72]:

فما لعينيك إن قلت اكففا همتا وما لقلبك إن قلت استفق يهم
أيحسب الصب أنّ الحب منكتم ما بين منسجم به ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طلل ولا أرقت لذكر البان والعلم

ثمانية أبيات

في حين أنّ شكوى الحب والغرام لدى الشاعر تأخرت إلى القسم الأخير من هذه القصيدة المدحية وكأني بالشاعر أزال في مطلعها والمراحل الأولى منها العوالق والمخاوف، فشكاها إلى رسول الله، وألقاها في بحره اللجي ليفرغ باخرة منها لحديث الحب والهوى، وقد ترك حديثه هذا مفتوحاً، فلم يحفل بخاتمة له إلا من إشارة خفيفة، وإنما هي أبيات تلو أبيات في الحب والشوق والانشغال بالمحبوب، أو قل: نشوة اللقاء، وإرادة الشاعر ألا تنتهي هذه النشوة، وأن تستمر وتستمر إلى ما ليس له عد أو حدّ.

غير أن الباحث لا يرى في حديثه عن جزئيات حبه وغرامه جديداً لم يسبق إليه البتة، حتى ولو أكدت معانيه الرائقة وجمالياتها الخالدة، فقد نقع على أمثالها مما عاناه المحبون، وكابده أرباب السلوك وأهل العرفان، من أمثال ابن الفارض بدءاً من بيتيه اللذين نظمهما في منامه وهما قوله[73]:

وحياة أشواقي إليك وتربة الصبر الجميل
ما استحسنت عيني سواك ولا صبوت إلى خليل

وانتهاء بديوانه صفحة أثر صفحة، ومثل هذا المماثلة في أحاديث الحب والهوى وسائر المعاني الشعرية، لا تقلل من قيمة الشاعر، ومما قدمه في هذا المجال من وحي صدقه وحاله الرباني، بل لا يعدو الأمر التأثر والاقتباس، والمعاني تتوارد على صفحات القلوب، فيقلد اللاحق فيها السابق فناً وشعراً، مع ملازمته المعنى

72 ديوان البوصيري، ص 233.
73 ديوان ابن الفارض، ص2.

مقاماً وحالاً، وهذه حال نجدها عند أصفياء القلوب، وأرباب الذكر، وقد لا نجدها عند سائر الشعراء ممن اقتبسوا المعاني عن بعضهم بوحي التقليد وحسب، ولنا أن ندلل تدليلاً يسيراً ببعض ما قاله الشاعر في إمامته للمحبين، وما سبق إليه ابن الفارض في هذا المعنى، قال أبو مسلم يصور ذلك[74] معرجاً على سابقه:

طارحت أهل الهوى حتى بليت به ففتهم ومشوا خلفي على أثري

لا يصدق الحب إلا من يموت به ما للهوى دون حسو الموت من قدرِ

وقال ابن الفارض في إيضاح هذا المعنى وبيانه[75]:

إنّ الغرام هو الحياة فمت به صباً فحقك أن تموت وتعذرا

قل للذين تقدموا قبلي ومن بعدي ومن أضحى لأشجاني يرى

عني خذوا وبي اقتدوا ولي اسمعوا وتحدثوا بصبابتي بين الورى

مهما يكن من أمر فإنه من الضروري العودة إلى القصيدة كلاً موحداً، وعملاً إبداعياً كاملاً، بعد أن وقفنا على مقدمتها ومحاورها واحداً اثر واحد، إنها وإن خلت من الخاتمة المطولة واقتصرت على عبارة تعد من براعة الختام[76]، ربط بها الشاعر بين أول القصيدة وآخرها، إن إعراضه هذا عن الخاتمة المطولة حسنة بحدّ ذاتها، ولا سيّما أنّ قسمها الأخير كان في حديث الشاعر عن حبه وأشواقه، وكأن الشاعر أراد أن يترك باب الحب مفتوحاً على مصراعيه، ليدخله من أراد، ليرافق الشاعر رحلة حبه وأشواقه مما لا حصر له أو نهاية.

والحق أنّ هذه القصيدة بجميع محاورها مما ورد في مقدمتها وموضوعها بمضامينه المختلفة تتسم بوحدتها الموضوعية، إذ قيلت في موضوع واحد هو مديح النبي عليه الصلاة والسلام، وقد عمد الشاعر إلى تحليله وتقليبه على جميع وجوهه بدءاً من مقدمته التي عرض فيها الشاعر لحاله، وما نزل بساحته، ومروراً بذلك الجسر الفني المتقن الذي انتقل من خلاله إلى ما يشبه إيجاب الحقوق على

74 ديوان أبي مسلم البهلاني، ط وزارة التراث، ص 260.
75 ديوان ابن الفارض ص 99.
76 البديعيات ص 73.

الممدوح، فاستعطف واستلطف دونما إذلال لنفسه، وإنما قال ما قاله، وهو بمنتهى الرفعة، كونه في باب رسول الله ﷺ، وليس في باب غيره من البشر، وتلا ذلك بما أحاط به النبي الكريم من أسماء وصفات هو أهل لها عليه الصلاة والسلام، وأنهى بحديثه حبه، وأحسن بما صنعه، إذ ترك حديثه هذا من غير أن يشعرك بختامة سوى إشارته البديعية اللطيفة إذ عاد ليقرر ما بدأه من أنه في يد الخطر، وأنه ختاماً ما زال محتاجاً ليد المصطفى لتنتشله من هذا الخطر وهو قوله في المطلع:

غوث الوجود أغثني ضاق مصطبري سر الجود استلمني من يد الخطر

وقوله في الختام:

إن كان حبي معلولاً فأنت لها أدرك عليلك قبل الأخذ في الخطر

ولعمري، إن ما فعله الشاعر جاء تتويجاً لوحدة هذه القصيدة وإخراجها على منهج القصائد ذات الوحدة الموضوعية، إذ تتنامى تلك القصائد، ويؤدي جانب منها إلى جانب آخر لتصير في النهاية خلقاً سوياً، وهي بذلك تماثل القصائد المدحية التي قالها بنفس واحد كبار المادحين لرسول الله ﷺ أمثال البوصيري في بردته وهي التي قالها بنفس واحد وتكاملية بديعة بدءاً من نسيبها، وما وليه من تحذير من هوى النفس، ومروراً بمحاورها المتعددة من مثل مديحه عليه الصلاة والسلام والكلام عن مولده ومعجزاته، ثم الحديث عن القرآن والإسراء والمعراج والجهاد والختم والتوسل والمناجاة[77].

ونحو هذا يقال في قصيدة الشاعر الثانية التي جعلها ختاماً لملحمته الشعرية في أسماء الله الحسنى، إذ جعلها عناصر تتنافى وتتكامل - ويؤدي كل جانب منها إلى الجوانب الأخرى، وكان بدأها بالصلاة على النبي بعد أسرار أسماء الله الحسنى الظاهرة والباطنة، وبعدّ أسرار جاهها، وأسرار أنوارها، وعد ما في أبحرها وسيب فيوضها ثلاثة وعشرون بيتاً متتالية، فهذا عنصر، والثاني في ذكر صفاته وأسمائه عليه الصلاة والسلام، فهو الجامع الأسماء والأسرار وهو الأول المكنون، والظاهر المعلوم، والسابق المخصوص، عشرة أبيات متتالية، والثالث في ذكر فضل

77 مختارات من الشعر العربي القديم، ص 162 وما بعدها.

الله ومنته على النبي، إذ تولاه، وبوأه من كل خير، وآثره من بين خلقه ورسله، أحد عشر بيتاً متتالية أيضاً في أمثال هذه المعاني، والرابع في الصلاة على النبي والدعاء له، أربعة عشر بيتاً في هذا المعنى وما يماثله، والخامس ثمانية أبيات ختم الشاعر بها القصيدة، فجعلها توسلاً بالنبي الكريم ودعاءاً لنفسه، وتضرعاً إلى الله أن يأخذ بيده لكل خير، وهو قوله يختم به ختام ملحمته الشعرية[78]:

إلهي هب لي نظرة في مطالبي   فحسبي غنى إن نظرة منك حقت
وخذ بيدي في أمر كلّ سياسة   وحسن ختامي بالرضا اجعل مبرتي

فهذا الختام يدفع بنا للحديث عن خاتمة قصيدة المديح النبوي عند الشاعر الرواحي، مبناها ومعناها، وبه ختام هذا المبحث.

جـ - بناء الخاتمة:

للخاتمة مكانة وقيمة في خطاب الشاعر أبي مسلم البهلاني، يقود إلى هذا الأمر استقراء قصائده في المديح النبوي، وما عقب به على (سموط الثناء) من وضع خاتمة مناسبة لهذه القصيدة، وهي قوله[79] نظماً وتخميساً:

وصل وسلم مثل معلوم ما يجري
بـه القلم الأعلى مـن الخلق والأمر
بلا أمد يأتي ولا منتهى حصر
على المصطفى الهادي محمد البرِّ   وأصحابه الآل خير شهود

وكان الشيخ الخليلي لم يذيلها بخاتمة قط، فجعل أبو مسلم خاتمتها صلاة طاهرة على المصطفى وآله وأصحابه، وكان قدم لذلك بقوله: «... فإنه - أي الشيخ الخليلي - وإن لم يأت بها في متن الظلم، فلا نرتاب في إتيانه بها حالة الذكر، تشرعاً بالواجب، وتدرعاً بالأفضل، ولكن تجاسرت تجاسر العبد على مولاه بأن نظمت لها

78 ديوان أبي مسلم البهلاني، طبع وزارة التراث القصيدة بتمامها في ص 112-115.
79 ديوان أبي مسلم البهلاني، ت النجدي، ص 176.

صيغة صلاة وفاء بالواجب عليّ، لا تلافياً لتقصير اعتده على ذلك القطب»[80].

وأبو مسلم في صنيعه هذا محق، بل هو على دراية بالنفس الإنسانية، ومدى استعدادها للتعامل مع الفن، فالشعر فن تتلقاه النفوس بقدار، ترتاح له منظماً منمقاً، وإنّ من حسن تنظيمه أن يختم، وأن يكون له مدخل، ومضمون، وتزيينات وزخارف، شأنه شأن البناء المتكامل، وشأن الخاتمة في أي عمل فني أيضاً، شأن المحطة الأخيرة إثر سفر متواصل، تستريح بها النفس، تستشعر انتهاء المشوار، ويتنفس المسافر فيها الصعداء، ومن هنا كان إصرار الشاعر على ختم كل قصيدة، وأحياناً كان يتجاوز الخاتمة الواحدة إلى خاتمتين، صنيعه في قصيدته (الله جل جلاله) إذ جعل لها خاتمة في ذكر النبي عليه الصلاة والسلام، والثناء عليه، والتوسل به، وخاتمة أخرى في الدعاء لنفسه وللمؤمنين، وقس على ذلك قصائده جميعها، إذ كان يختمها بوحي حاله الإيماني، ثم الشعري متمماً بذلك النسيج الذي بدأه منذ اللحظة الأولى، إذ كان يلج إلى العمل الفني بصدق إيماني، وآخر فني، معلياً من شأن الروح، والذكر، والتوجه إلى الله، جاعلاً الشعر في خدمة هذا المنحى، أو على أقل تقدير متمشياً معه، وليس بسابق له، ومن هنا جاءت خواتم قصائده المدحية، أما صيغة صلاة النبي، كما في قصيدته (مقدس النفوس) وقصيدته (خاتمة السعادة) وقصيدته (الباقيات الصالحات) وهمزيته في الذكر، وبائيته في الذكر أيضاً وإما دعاء حاراً لنفسه وللمؤمنين كما في قصيدته (الكلم الطيب) وقد يجمع ما بين الصلاة على النبي، وذكره، والثناء عليه، والدعاء لنفسه ولغيره كما في قصيدته الكبرى أسماء الله الحسنى، وقصيدته (النفحة الفاتحة في التوسل بأسماء الفاتحة) وقصيدته (المعرج الأسنى)[81].

واللافت عدم اعتداده بما اعتاد عليه من أمر هذه الخواتم في قصيدته الرائية التي خصها للمديح النبوي دون سواه، إذ كان أنهاها بمحور حبه وأشواقه، ولم يحفل بخاتمتها سوى إشارة بديعية يسيرة، قد تحمل على براعة الختام، إذ ماثل ببعض المعنى واللفظ بين أول بيت وآخر بيت في هذه القصيدة مما سبق الحديث

80 المصدر السابق، ص 154.

81 انظر الجدول المرافق بآخره من المبحث الأول، وفيه أرقام صفحات القصائد المشار إليها في ديوان الشاعر طبع (وزارة التراث) وطبع (دار الكتب).

عنه قبل قليل، ولا ضير على الشاعر في ذلك ما دام ينظم بمستوى حاله وانفعاله مع الله، ومقامه في الذكر، ولما كانت المحبة بين العبد وربه غاية الذكر، وأجمل ما فيه على الإطلاق، لم يرد الشاعر أن يختم الباب، بل تركه مفتوحاً إشارة منه إلى استمرارية حبه لله ورسوله، ولتبقى نفس السامع من جهة أخرى متعلقة بالسماع لأمثال هذه المعاني البديعة والرقائق الإيمانية الرائعة، ومثل هذا التوجه الفني له نظائر في أدبنا العربي، إذ لاحظ بعض النقاد أنّ معلقة امرئ القيس على طولها لم تبلغ غاية فكرية تستريح لها النفس، وجعل هذه الخاتمة المنقوصة مكرمة لا منقصة، قال صاحب العمدة: «ومن العرب من يختم القصيدة فيقطعها، والنفس فيها متعلقة، وفيها راغبة... ألا ترى معلقة امرئ القيس كيف ختمها، لم يجعل لها قاعدة كما فعل غيره من أصحاب المعلقات، وهي أفضلها»[82].

فهذا شأن الشاعر مع خواتم قصائده المدحية، تنبثق الخاتمة من حاله الإيماني، ومما سرى في قصيدته من هذه الحال.

وفيما تقدمنا من حديث عن بناء المقدمة والموضوع والخاتمة، وما سبق ذلك من حديث عن قصيدة أبي مسلم في المديح النبوي شكلاً ومضموناً مؤهل للتقدم في الموضوع خطوة جديدة، وهي الحديث عن بنية هذه القصيدة صياغة وأسلوباً، وهو ما سنقف معه فيما يلي من بحث.

82 العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده 240/1.

المبحث الثالث

بنية قصيدة المديح النبوي
في خطاب أبي مسلم الشعري

«الأسلوب والصياغة»

بعد أن وقفنا مع قصيدة أبي مسلم المدحية شكلاً ومضموناً وبناءً (لمقدمتها ومضمونها وخاتمتها) كان لا بد من الانتقال إلى بعض الجوانب الفنية والسمات الأسلوبية المتعلقة بها استكمالاً للبحث، وتخريجاً له على الوجه الصحيح، بيد أننا قد نوجز في هذا الجانب، بما يحقق غرض البحث دون زيادة أو نقص، ومنه سيكون الاقتصار على تلك القصائد التي أنجزها الشاعر مديحاً خالصاً للنبيّ الكريم عليه الصلاة والسلام، ولا سيما إذا كانت عدة أبياتها كافية لاستقراء ما فيها من خصائص وسمات كخاتمة قصيدته في أسماء الله الحسنى.

وقد يكون من المفيد في هذه العجالة التعريف بالأسلوب مما تواضع عليه النقاد من عرب وأوربيين، وبوحي من كلامهم سنناقش قصائد البهلاني في متعلقات الأسلوب والصياغة، وضمن نقاط محددة من نحو بناء الألفاظ، والخيال والصور، وموسيقى الشعر، والتناص القرآني والحديثي، وما يعرض في أثناء ذلك من أمور نقدية أخرى كالعاطفة والصدق الفني والواقعي، مما تتطلبه التجربة الشعرية لدى المبدع حين يتحول بها إلى نص شعري.

فالأسلوب بوجه عام طريقة الإنسان في التعبير عن نفسه كتابة «وهذا هو المعنى المشتق من الأصل اللاتيني للكلمة الأجنبية الذي يعني القلم. وفي كتب البلاغة اليونانية القديمة كان الأسلوب يعد إحدى وسائل الإقناع الجماهيري، فكان يندرج تحت علم الخطابة، وخاصة الجزء الخاص باختيار الكلمات لمقتضى الحال.

وثمة اتجاه مكمل توارثه الأدباء الأوربيون من المفهوم القديم للأسلوب، وهو التفرقة بين مضمون الكلام وطريقة التعبير عنه أو صيغته، فاعتبرت اللغة، أو التعبير بمنزلة ثوب للمعنى، والأسلوب بمنزلة طراز هذا الثوب[83].

وفي الأدب العربي اختلفت تعريفات الأسلوب باختلاف العصور، وآخر

83 معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984م، ص 34.

التعريفات تعريف المرحومين علي الجارم ومصطفى أمين في كتابهما (البلاغة الواضحة) وهو «المعنى المصوغ في ألفاظ مؤلفة على صورة تكون أقرب لنيل الفرض المقصود من الكلام، وأفعل في نفوس سامعيه»[84].

ولا تبعد الصياغة في كنهها وجوهرها عن التعريف الذي أطلقه النقاد حول الأسلوب، فالصياغة هي «مجموع كلمات مترابطة تتضمن بذاتها معنى معيناً، وتصاغ حسب قواعد واضحة من النحو والمنطق والفصاحة الأدبية»[85] ويرى الدكتور شوقي ضيف أنه «ليس هنالك ما يسمى صياغة شعرية، وما يسمى صياغة غير شعرية، بل كل الألفاظ صلاح لأن يكون مادة للشاعر ينشد منها ألحانه»[86].

وتسهيلاً لما ذكر، فالأثر الفني كائناً ما كان لا بد له من ثلاثة أطراف، وهم المبدع والمتلقي والرسالة (النص) فالتعبير عن الفكرة يتم بالكلمة المنطوقة أو المكتوبة، وهو نوع من أنواع من الاتصال على أنّ أهم ما يميز عمل المبدع هو أسلوبه، أي طريقة أدائه، وتعبيره عما في نفسه، ونقله إلى غيره، فأسلوب الكاتب هو الكاتب نفسه فكراً وشخصيته جوهراً وكياناً، فيمكن أن ندرك الشخص وحقيقته من خلال أسلوبه في الكتابة، فالأديب حين يعبر عن شخصيته تعبيراً صادقاً من خلال اتصاله بالحياة ومعايشته تجاربها، ينتهي به الأمر إلى أسلوب متميز يشتقه من خلال هذه الشخصية، ومن هنا تعددت الأساليب بتعدد المنشئين والمبدعين[87].

ومن هنا يمكننا الدخول إلى عالم أبي مسلم كونه منشئاً ومبدعاً، وأديباً يحسن التعبير ويصدقه، من خلال اتصاله بالحياة ومعايشته تجاربها، على إن تجربته ليست مادية صرفة، أو حياتية بحتة، صحيح أنّ أساسها الإنسان، منه تنطلق، وإليه تعود، ولكنها متناغمة بدرجة عالية مع عالم السماء، لما عرف به صاحبها من إقبال على الله، وذكر له في قيامه وقعوده، وسائر شؤونه، ناهيك بتبتله وزهده، وبكائه أو تضرعه، وحبه للنبي عليه الصلاة والسلام، وكله مما ترك أثره في شعره، وميز أسلوبه وصياغته، على نحو ما سنقف عليه من خلال الفقرات الآتية، وأولها:

---

84 ص 12، طبعة دار المعارف، مصر، 1996م.

85 المعجم الأدبي، جبور عبد النور، طبع دار العلم للملايين، بيروت، 1984م، ص 169.

86 المصدر السابق ص 160.

87 الشعرية والمتلقي، كمال أبو ديب، ص 83.

أ - بناء الألفاظ:

ولا يعني ما سبق ذكره من روحانية الشاعر أنه خاوي الوفاض في طرفه الثاني، ومعلمه الآخر، فالحق أنه يمتلك مقدرة لا حد لها في نظم الشعر والسيطرة على أدواته الفنية ويتجلى ذلك واضحاً في معجمه الشعري وألفاظه التي اعتمدها في صياغة شعره، وهي من الغنى إلى حد كبير، وذلك أنه كان يستمد من محيط القرآن الكريم، ويغرف من معين الحديث الشريف، مع اطلاع واسع على الأدب العربي بكل فروعه ومعطياته وحكمه وأمثاله[88]، فهذا هو المورد الذي صدر عنه الشاعر (بحرٌ عتي البيان) وقد وفق في خوض غمراته، واختيار لألائه، فجاءت ألفاظه فصيحة، عربية بعيدة عن معجم العامية، فكيفما طالع الباحث ديوانه، أو قرأ في قصائد أذكاره، أو مدائحه لنبيه عليه الصلاة والسلام، ولأقرانه من العلماء، أو دعائه وتوسله وتضرعه وبكائه، وسوى ذلك، لن يقع إلا على لفظ عربي أصيل، وهو إلى ذلك لا يختار اللفظ الغريب أو الحوشي، بل الرقيق المألوف، القريب إلى النفس، يلتذه الناظم تكراراً، ويلتذه المتلقي سماعاً، وهو في اختياره هذا يعبر فيحسن التعبير، ويصور فيجيد التصوير.

ولعله في توجهه هذا من التعبير باللفظ على أصله، والتصوير به على مجازه، وجد بعض التعويض عما افتقده أحياناً من تصوير بلاغي بسبب الخطاب الديني الذي يطرقه ويقيم في ظلاله، ولنصغ إليه يرسم ألفاظ صورة العبد يعلق بربّه ويناجيه بأسمائه وصفاته، فلا يخونه التعبير، ولا يفوته التصوير، لا تزل له قدم، ولا يرضى بلفظ غير ذي أصالة، ونسب عربي عريق، يقول[89]:

ببابك يا الله عبدك مخبت ... تعلقه بالله من كل وجهة
تعلقت بالله الذي لا إله لي ... سواه ولا ضاعت لديه عبودتي
تعلقت بالله العليم بموقفي ... وما أنا فيه من ضروب البلية
تعلقت بالله العظيم الذي جرت ... مقاديره دون اختيار البرية
تعلقت بالله اللطيف بخلقه ... وهذا هدى منه لنفعي وخيرتي

88 أبو مسلم الرواحي (حسان عمان) ص 64.
89 ديوان أبي مسلم الرواحي، ط وزارة التراث، ص 45.

فالألفاظ التي تخيرها تناوبت بين قطبي المعنى (الله والإنسان) وبها رسم العلاقة المثلى بينهما، وتخير لها ألفاظها المناسبة، فالله (إله، عليم، عظيم، لطيف...) إلى آخر الأسماء الحسنى في هذه الأبيات المتتالية، والإنسان: مخبت، أي خاشع متواضع[90]، عبد، مبتلى، نافذ فيه قدر الله، ولو أننا توقفنا قليلًا عند لفظة (عبودتي) الواردة فيما سبق (البيت الثاني) فيظن للوهلة الأولى أن الشاعر ساقها ضرورة فبناها من (عبدية) أو (عبودية) التي شاع استخدامها مصدراً للفعل (عَبَدَ) غير أنه، ولدى العودة إلى المعاجم نرى أن الكلمة إنما هي مصدر آخر من مصادر هذا الفعل، وإن قلّ استخدامها، ففي اللسان (عبد) «ويقال: فلان عبد بيّن العبودة، والعبودية، والعبدية، وأصل العبودية الخضوع والتذلل»[91] مما يقر في الأذهان، ومن خلال أكثر من مراجعة ومطالعة في ألفاظ الشاعر عمق ثقافته وسعة المحيط الذي يغرف منه.

ولكَ أن تعود إلى سائر قصائده لتقرر هذه الحقيقة وتراها كيفما قرأت في ديوانه، وعاودت النظر في أشعاره، وخذ على سبيل المثال ما ورد في خاتمته لهذه القصيدة، والتي تعد نموذجاً للمديح النبوي الذي كان يختتم به قصائده، من نحو قوله في صفة النبي عليه الصلاة والسلام[92]:

هو الجامع الأسماء جمع تحقق	ومشكاة الصفات الجليلة
هو الجامع الأسرار جيب سرّه	هو المشرق الأسرار في أي وجهة
هو الكاشف الأستار عن نير الهدى	هو الباعث المبعوث بالحنفية
هو الأول المكنون في أبحر العمى	هو الآخر المقصود في كلّ رتبة
هو القائم الساطي بعزم مؤيد	هو الفاتح المنصور في كلِّ وجهة

فألفاظ البيت الأول تناصها واضح مع الآية القرآنية الكريمة: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ [النور: 35]. وهو مما يستدل به على معين الشاعر الذي كان

90 اللسان (خبت) وأصل الخبت (ما اتسع من بطون الأرض، عربية محضة).

91 ينظر اللسان (نكف) والمعجم الوسيط والمنجد (عبد).

92 ديوان أبي مسلم الرواحي، ط وزارة التراث، ص 113.

يستمد منه الكثير من ألفاظه. والبيت الثاني مثال لتناسب الألفاظ وتساوقها مع المعنى العام (الجامع - جيب) و(الأسرار سرّ) ناهيك بلفظه المشرق و(هي وصف من أشرق الله الشمس: جعلها تشرق) والشروق يملأ الوجود، وكذلك معنى البيت، فإنّ إشراق النبيّ عليه الصلاة والسلام فيه عام غير محدد، وفي أي جهة وجهة. ونحو ذلك البيت الثالث فتناصه واضح في شطره الأول مع معنى قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: 15]. وأما قوله: المبعوث بالحنفية، فالمعروف أنّ ملة إبراهيم عليه السلام يقال لها الحنفية، وكذلك الإسلام[93]، وقد يكون الشاعر استخدم اللفظ لعموم التوحيد، ووحدة الملة المؤمنة من يوم آدم إلى يوم الدين، ولأواصر اللقاء بين الحنفية الإبراهيمية، وما يشتمل عليه الإسلام من شعائرها، ولا سيما في الحج ومناسكه، قد يكون أراد بهذه اللفظة أصلها «فالحنف الاستقامة وإنما قيل للمائل الرجل أحنف تفاؤلاً بالاستقامة... والحنيف الصحيح الميل إلى الإسلام والثابت عليه»[94]. وكنا نتمنى على الشاعر أن يستبدل لفظاً بلفظ دون أن يخل بالمعنى، وذلك أنه استخدم في البيت الرابع أبحر (العمى) وأراد (الخفاء) كونه عليه الصلاة والسلام قبل خلقه، كان مكنوناً، ذا خفاء، عن علم البشر، وحين أراد الشاعر أن يعبر عن هذا المعنى قصد لفظ (العمى) وهو لفظ غير مستساغ، ولعل الأجمل منه لفظ (الخفا) مقصوراً، ولا ضرر في استخدامه على وزن البيت، أو المعنى الذي أراده الشاعر. وقد اشتق من لفظ (سطا) اسماً من أسماء النبيّ عليه الصلاة والسلام، إنه وإن كان مما تنفر النفس منه، لما يتأتى من خلاله من فكرة السطو، غير أنّه جاء مناسباً للمعنى الذي أراده الشاعر، كونه عليه الصلاة والسلام القائم بعزم الله وتأييده جهاداً، وفتحاً مبنياً في كل وجهة من وجهات الكون، فهذا المعنى الجهادي يناسبه لفظه القائم، والساطي، والفاتح،

93 قال أبو عبيدة في قوله عز وجل: قل بل ملة إبراهيم «قال من كان على دين إبراهيم، فهو حنيف عند العرب. فلما جاء الإسلام سموا المسلم حنيفاً» اللسان (حنف).

94 اللسان (حنف).

والمنصور، مما لجأ إليه الشاعر من ألفاظ في هذا البيت.

وكذلك يقال في قصيدته التي خصها للمديح النبوي، فإنّ ألفاظها جاءت مستمدة من محيط القرآن، ومعين الحديث النبوي، ومن صفحات التراث الشعري، ولا سيما الصوفي، وقد نأت عن العامية، وعانقت الفصحى، وتماوجت مع المعنى الذي هدف إليه الشاعر، فتنوعت تبعاً لذلك ما بين ألفاظ سهلة سلسة، وأخرى قوية جزلة حسب المقام، والمعنى، وما قصد إليه من فكرة، ويمكننا أن ندلل على ذلك ببعض أبيات هذه القصيدة نقتطفها من محاورها المتنوعة، فمن مقدمتها قوله في الاستغاثة والاستنجاد برسول الله ﷺ:

غوث الوجود أغثني ضاق مصطبري　　　سر الوجود استلمني من يد الخطر

فلا شك في ائتلاف هذه الألفاظ مع معاني الاستغاثة مع جديد نفذ إليه الشاعر من خلال لفظة (الصبر) استخدم مزيدها، واشتق منها اسم مكان لتعميم مصابه، وبيان حاله.

ومن محورها الثاني في إيجاب الحقوق على الممدوح (عليه الصلاة والسلام) قوله:

أمنية الفوز منه غير خائبة　　　ومطمع النجح منه غير منحسر

ونائل الخير منه غير منقطع　　　وفائض البر منه غير منحصر

فالأمنية، والفوز، والمطمع، والنجح، ونائل الخير، وفائض البر، ألفاظ كلها تأتي متساوية متضافرة في تجاه واحد، لتقرر في نفس الممدوح حاجة المادح الناظم إلى برّه وسيب فيضه عليه الصلاة والسلام.

ومن محور حبه وأشواقه قوله:

وجدت روحي صريعاً في مصارعه　　　يا حب لا تبق من روحي ولا تذر

نار المحبة نار لا يقام لها　　　لواحة قسماً بالحب للبشر

ألفاظ لا يقال فيها إلا ما قيل في مثيلاتها من حسن تعبيرها عن المضمون واتساقها مع المعنى، إذ جلت حبّه، وأبانت عن أشواقه، وما يعتلج في نفسه من الشوق والضنى، ومرارة البعد والنوى إزاء محبوبه عليه الصلاة والسلام.

على أن اللافت في ألفاظ قصائده، مما يراه الباحث جلياً تعلقه ببعض الألفاظ

يكررها مرات كثيرة من نحو أبيات الاستشهاد والتي وقفنا عليها. والتي وردت في قصيدته (الله جل جلاله) ولها مثيلات متنوعة في تكراره لفظ الجلالة (الله) مقروناً بصيغة الضمير (هو) (هو الله) و(بسم الله) و(إلهي) وبعض أسماء الله الحسنى، والضمير (هو) يعني به رسول الله ﷺ، وألفاظ الإضافة إلى الوجود (غوث الوجود، نور الوجود، روح، انس، امن عين، عز...) ويخاطب بها النبي الكريم، فهذا مرده حالة الذكر التي كان يحياها الشاعر آناء الليل وأطراف النهار، وقد سرت في شعره تكراراً يلذّه الشاعر الذاكر ويأنس به، ويؤكد من خلاله المعاني الإيمانية التي تتراءى على صفحة روحه المشرقة.

ب - بناء الصور:

من الأهمية في هذا الحيز من الدراسة المتعلق بالخصائص الفنية لقصيدة المديح النبوي في خطاب أبي مسلم الشعري الوقوف على شيء من بناء الصورة الأدبية والفنية لهذه القصيدة، ولا سيما في معانيها الجمالية، وفي صلتها بالخلق الفني، على أن مفهوم الصورة قد يتسع ليشمل التجربة الشعرية في العمل الأدبي كله، كما تطلق على جزئياته عندما تكون صوراً جزئية معبرة عن الأفكار الجزئية، وهي في معناها الكلي والجزئي تعد الوسيلة لإبراز التجربة الشعرية والتمثيل الحي للعمل الأدبي بما فيه من عواطف وأفكار.

وللصورة الأدبية مكوناتها التي تكون في اللفظ وإيحاءاته سواء دلّ على حقيقة أو مجاز، وفي موسيقا الكلمات وانسجامها في التعبير، وفي العاطفة فيما ترنو إليه من ألوان الصورة، إذ من المعروف أن العاطفة تلون الصورة بألوانها من حزن، وفرح، وألم، وأمل[95].

وللصورة الفنية كذلك أركانها ووسائلها، وحضورها الفني في كل لوحة شعرية، إذ لا تخلو لوحة من بعض أركانها ووسائلها، وهو ما يميز هذه اللوحة عن منثور الكلام ويسمها بالشعر، وإلى نحو هذا أشار النقاد، موائمين في تعريفهم للشعر بين عنصري

95 الشعر العماني، مقوماته واتجاهاته، ص 172.

الموسيقا والتصوير الفني، ومنهم ابن خلدون، إذ يذكر أن الشعر (هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف المفصلة بأجزاء متفقة في الوزن والروي)[96].

وعليه، يمكننا التذكير بأركان هذه الصورة من مكان وزمان وجزئيات موحية وما يشتمل عليه كذلك من حركة ولون وصوت مما يخرجها من دائرة الجمود إلى مجال الحركة والحياة، ويمكننا التذكير أيضاً بوسائلها الفنية من تشبيه واستعارة وكناية، وقد يتجه الشاعر اتجاهاً آخر، فيتكئ على معاني الألفاظ في عرض صورته والتعبير عنها، والإيحاء بها، مما سبق الإلماع إليه آنفاً.

ومهما يكن، فإن مطالعة سريعة في قصيدة المديح النبوي عند أبي مسلم البهلاني تجعلنا نتلمس بوضوح ما عرضنا له من أركان الصورة الفنية، ووسائلها، ناهيك بألفاظ الشاعر التصويرية الموحية، وما دلت عليه من انتقاء الشاعر للألفاظ المعبرة عن الشحنة الشعورية لديه، كونه كان مفعماً بحب المصطفى عليه الصلاة والسلام، فامتزج لديه الحب مع الاستعطاف واستخدم لذلك الكلمات اللازمة التي تفيض بالحيوية، والتعبير الفني الصادق، والإيحاء بالوضع النفسي الذي كان يعايشه، وعلى سبيل المثال كلمة (أغثني) في قصيدته التي خصّها للمديح النبوي[97] مما ورد في بيتها الأول:

غوث الوجود أغثني ضاق مصطبري   سر الوجود استلمني من يد الخطر

توحي بتأزم الشاعر، وكلمة نور في البيت الثاني:

نور الوجود تداركني فقد عميت   بصيرتي في ظلام العين والأثر

توحي بالهداية، وكلمة (الوجود) في البيت نفسه، والأبيات التي تليه توحي بخطورة الخطب، وكلمة (استوحشت) في البيت الخامس:

أنس الوجود قد استوحشت من زللي   وأنت أنسي في وردي وفي صدري

توحي بالتألم والضيق، وكلمة (أجرني) في البيت السادس:

أمن الوجود أجرني من مخاوف ما   أحرزتُ نفسي منها في حمى الحذر

توحي بالتعلق بالرسول ﷺ، وكلمة (بؤسي) في البيت السابع:

96 موسيقا الشعر، د. رجاء عيد، نسخة مصورة، ص 3.
97 ديوان أبي مسلم، إصدار وزارة التراث القومي والثقافة، ص 259.

عين الوجود ترى بؤسي ونازلتي   وفي محالك إنقاذي من الضرر

توحي بالإحباط وكلمة (عز) في البيت الثامن:

عز الوجود بعز الله أنت لها   فواقر درست أعيانها أثري

توحي بشدة إيمانه بالله، وكلمة (فواقر) في البيت نفسه مفردها (فاقرة)، وهي الداهية الكاسرة للفقار[98]، توحي بشدة البلاء، وعظم المصاب، وكلمة (النصر) في البيت التاسع:

وجهت نحو رسول الله نازلتي   وقلت يا نفس طم النصر فانتظري

توحي بالثقة المطلقة بالرسول ﷺ، وكلمة (أمنية) في البيت العاشر:

أمنية الفوز منه غير خائبة   ومطمع النجح منه غير منحسر

توحي باللفهة، وهكذا تراوحت الألفاظ التصويرية بين محورين اثنين، محور (الإنسان) بما انتابه من تأزم ووحشة وبؤس ونازلة وفواقر لا حصر لها، ومحور «الله» عز وجل بما يرتجى لديه من نجاة وخلاص، ونصر وعز، وباب ذلك كله حضرة الرسول ﷺ.

ولو انتقلنا إلى إيحاء كلماته في مديحه النبوي الآخر الذي ختم به قصيدته الكبرى (الله جل جلاله)[99] لوجدنا أنها تتمثّل بمعانٍ إيمانية تناسب مقام ذكره لربه، وثنائه على نبيه الكريم عليه الصلاة والسلام، ونسوق على سبيل المثال قوله (بخفية) في البيت الأول:

وصل وسلم عد أسرار كلّ ما   لذاتك من اسم بدا أو بخفية

فإنها توحي مع مضادها اللفظي (بدا) بالإحاطة التامة مما ينفرد به الله عز وجل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3] وكلمة (العظمية) في البيت الثاني:

98 لسان العرب (فقر).

99 ديوان أبي مسلم، إصدار وزارة التراث، ص 112.

وصل وسلم عد أسرار جاهها ومقدارها في الشأن والعظميّة

توحي بالجلال، وكلمة (كل) في البيت الثالث:

وصل وسلم عد أسرار نورها وأضوائها يا نور في كلِّ رتبة

توحي بالعموم، وكلمة (الجوهر) في البيت الرابع:

وصل وسلم عدّ ما في بحارها من الجوهر المكنون عن أي فطرة

توحي بالسر العظيم، وكلمة (بحر) في البيت السابع:

وصل وسلم مثل بحر مدادها وتنزيل امداداتها كلّ قوة

توحي بالعطاء، وكلمة الأثر في البيت الثامن:

وصل وسلم عدّ ما تحت دركها من الأثر المغمور بالقادرية

توحي بالقدرة الفعالة، وكلمة (سلطانها) في البيت التاسع:

وصل وسلم عد ما تحت مجدها وسلطانها من متقن الموجدية

توحي بالرهبة، وكلمة (ذرة) في البيت العاشر:

وصل وسلم حسب تصرف قهرها وتديرها الأحكام في كل ذرة

توحي بالدقة المتناهية.

ولو انتقلنا نتصفح أركان الصورة الفنية في القصيدتين السابقتين لما فاتنا الشاهد في كل بيت من أبيات هذه القصيدة، أو تلك، فكلمة (مصطبري) التي اشتقها من الفعل اصطبر ذات دلالة مكانية واسعة، إذ توحي بالمشاركة والتصبر والتجمل، بيد أن هذه الرحابة المكانية مما افتقده الشاعر بسبب من الخطر المحدق به وهو ما عبر عنه بالضيق، وكله مما يدخل في حيز التصوير المكاني سلباً وإيجاباً.

والكلمات: عميت و(ظلام) و(العين) في البيت الثاني رسمت بالألوان لوحة التيه، ونفذت من ظاهر إلى باطن، من ظاهر إنساني تائه، إلى باطن نوراني هاد ومبشر، وهو قوله:

نور الوجود تداركني فقد عميت بصيرتي في ظلام العين والأثر

وقوله (سمع الكون والبصر) في البيت الثالث توظيف للحواس في التعبير

عما أراد، وقوله (فانتظري) ذات بعد زماني واضح، ونحو هذا يقال في أبياته التي اختتم بها قصيدته (اللهُ جل جلاله) فكلمة (صل وسلم) التي تكررت على مدى اثنين وعشرين مرة، وبالتوالي في كل بيت مرة، هي مما يوحي بالحركة، حركة الإنشاد والذكر، وكذلك كلمة (عدّ) التي تكررت ست مرات في الأبيات الأولى من هذه الخاتمة، وهو قوله: (عدّ أسرار نورها) و(عدّ ما في بحارها)، و(مثل عدّ شؤونها)، و(عدّ ما تحت دركها) وهكذا.

وفي مجال الوسائل الفنية التي اعتمدها لإبراز خياله، وإيضاح صوره الشعرية، نجده يلجأ للتصوير الاستعاري، ففي قوله من مطلع القصيدة المدحية الأولى[100] (ضاق مصطبري) شبه المصطبر، وهو شيء معنوي بشيء حسي يتسم بالضيق، وكذلك نجد التصوير الاستعاري باخرة من هذا البيت وهو قوله (يد الخطر) وفي البيت الثالث نجد التصوير الاستعاري في قوله (سمع الكون) وفي البيت السابع نجد الاستعارة في قوله (ترى بؤسي) حيث شبه الشعور بالرؤية، واشتق من الرؤية الفعل ترى، وفي البيت العاشر يوجد التصوير بالطباق في قوله (أمنية الفوز منه غير خائبة).

وأما وسائله في التصوير في قصيدته (اللهُ جل جلاله)[101] فتمثل فيما يلي: صور بالطباق في البيت الأول، وهو قوله (بدا أو بخفية) وأجرى التصوير الاستعاري في البيت الثالث وهو قوله (يا نور في كل رتبة) حيث شبه تلبس النور في كل رتبة بتلبس الظرف في المظروف، وفي البيت الخامس يوجد التصوير التشبيهي في قوله (وصل وسلم مثل عدّ شؤونها) حيث شبه عدد الصلاة والسلام بعدد شؤون الذات، وفي البيت العاشر يوجد التصوير بالحقيقة، وهو قوله (حسب تصريف قهرها)، و(تدبيرها الأحكام) فالتصوير - كما هو معروف - ليس مقصوراً على التصوير بالمجاز، وإنما يكون بالحقيقة كذلك، حين يناسب الموقف التصوير بالحقيقة.

فهذا، ونحوه مما يدلك على بناء الصور في قصيدة المديح النبوي لدى الشاعر البهلاني، وهو لا يعدو التمثيل والإلماع للتصوير الذي اعتمده الشاعر ونفذ من خلاله له لمعانيه في الذكر والمديح النبوي.

100 ديوان أبي مسلم طبع وزارة التراث، ص 259.
101 المرجع السابق ص 112.

جـ - البنية الموسيقية:

لا يحتاج الباحث إلى كبير عناء ليقرر التقليدية التي انطوى عليها شعر أبي مسلم البهلاني، فقصائده من الشعر التقليدي الذي يعتمد على صياغة القصيدة من بحر واحد، وعلى روي واحد، وعلى نظام الشطرين، وذلك أن حياة الرجل وافقت فترة إحياء الشعر القديم، ولم تكن نسمات التجديد في موسيقا الشعر، مما يكترث به، أو ينتبه إليه بعد، ومن هنا، فإن الحديث عن البنية الموسيقية في شعر أبي مسلم لن يتجاوز الحديث عن النظام الشعري القديم، فيما لو لجأ إليه من عناية بالوزن والتقفية، وهو مما عني به النقد العربي عند تناوله لقضية الشعر، فكان التأكيد على أهمية الوزن من الأمور التي يحرص النقاد عليها، حتى شاع في أوساطهم هذه العبارة التي حفظت نفسها، وحفظها الناس، الشعر هو الكلام الموزون المقفى[102]، يقول الدكتور رجاء عيد: فكان هذا الأقنوم الذي اتخذ طابع القداسة الفنية معتقداً لا يجادل فيه شاعر أو ناقد، بل تعدى الأمر إلى مفكري العرب من الفلاسفة وعلماء الاجتماع فنراهم يصفون هذا الأقنوم كأحد المسلمات أو البديهيات التي لا تحتمل الجدل.

نجد ابن سينا على سبيل المثال يعرّف الشعر قائلاً: الشعر كلام مخيل مؤلف من أقوال ذات إيقاعات متفقة متساوية متكررة متشابهة حروف الخواتيم... وقولنا متشابهة حروف الخواتيم ليكون فرقاً بين المقفى وغير المقفى، فلا يكاد يسمى عندنا بالشعر ما ليس بمقفى[103].

والواقع أن الوزن والقافية في منظور الشعر التقليدي يمثلان الشعر نفسه، بل هما الفارق بينه وبين النثر، وقد أدى مثل هذا التوجه لدى النقاد والعرب أن يدخل في باب الشعر كل ما هو موزون ومقفى على الرغم من أن الكثير منه قد يفتقر إلى مقومات الشعر الفنية، ولا يعني هذا الإقلال من موسيقا الشعر أو أوزانه وقوافيه، بل هي - والحق يقال - روح الشعر وحياته، وقد يكون الاعتراض منصباً

102 موسيقا الشعر، ص 3.

103 موسيقا الشعر، ص 3.

على جعلها المقياس الأوحد للفصل بين الشعر والنثر[104].

وعلى العموم لا خلاف في أن للوزن أهميته، ولكن يجب أن يكون وسيلة تعين الشاعر على استجلاء حسه الفني، وتدفعه لتنبل بواسطته أفكاره، فلا تنشز إذا خلت من هذه الموسيقا (بل إننا نزعم أيضاً أن مشاعر القصيدة لها صلة بالنغم الموسيقي نفسه، فالشاعر البارع يمكنه أن يستغل الدفقات الموسيقية لتسابق وتتموسق في الوقت ذاته بما يصوره أو يعبر عنه[105].

في ضوء ما ذكرنا يمكننا العودة إلى قصائد أبي مسلم المدحية، والتأمل في موسيقاها، وأولها قصيدته التي أفردها لغرض المديح النبوي، ومطلعها[106]:

غوث الوجود أغثني ضاق مصطبري   سـر الوجود استلمني من يد الخطر

فهذه القصيدة من البحر البسيط (مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن) والروي المتكرر فيها هو الراء، ويتلاءم موضوع هذه القصيدة مع بحرها، لأن موضوعها هو مدح الرسول ﷺ، وهذا المدح فيه نفس طويل لدى الشاعر وانبساط، وكذلك البحر البسيط، فيه انبساط ورحابة، ومن هنا تلاءم الموضوع مع البحر.

وتتلاءم كذلك عاطفة الشاعر مع هذا البحر، لأن عاطفته عاطفة حب واستعطاف للرسول ﷺ، وهذه العاطفة تتسم بالرحابة والتشبع، ونحوها هذا البحر المتسم برحابته حركات وسكنات، ناهيك بروي الراء المكسورة، وهو مما يتناسب مع استعطاف الشاعر للرسول صلوات الله عليه.

ونحو هذا يقال في قصيدته الثانية التي جاءت خاتمة لقصيدته الكبرى (الله جل جلاله) ومطلعها[107]:

وصـل وسـلم عـد أسـرار كلّ مـا   لذاتلـك مـن إسـم بدا أو بخفية

فقد جاءت أبيات هذه القصيدة مع خاتمتها على البحر الطويل (فعولن مفاعلين فعولن مفاعيلن) ورويها المتكرر هو التاء المكسورة، ويتسم موضوع هذه

104 موسيقا الشعر، ص 3.

105 موسيقا الشعر، ص 5.

106 ديوان أبي مسلم، طبع وزارة التراث، ص 259.

107 المرجع السابق ص 112.

القصيدة بإطنابها الذي يتلاءم مع بحر الطويل بحركاته وسكناته المتسمة بالطول داخل البيت الواحد.

وتتسم عاطفة الشاعر في هذه الخاتمة بالرزانة والهدوء، ومن هنا تتلاءم هذه العاطفة مع البحر الطويل، كونه يصلح للحكم والتملي والتفكير، وكلها أمور تتناسب مع العاطفة الهادفة، ويتناسب روي هذه الخاتمة كذلك مع معاني التضرع لله عز وجل، والتقرب للرسول عليه الصلاة والسلام، مما صدر عنه الشاعر في هذه الأبيات.

وركب الشاعر متن البحر نفسه في قصيدته المشابهة التي عنون لها (بالنفحة الفاتحة في أسماء الفاتحة)[108] وكان ختمها بالمديح النبوي، ولم يبعد في سائر قصائده عن بحور الخليل. فـ (مقدس النفوس)[109] من بحر الرجز، و(خاتمة السعادة)[110] من بحر الخفيف، وهكذا، والشاعر في ذلك كله يحرص على الأوزان والنغمات، يجلوها، ويستفيد منها، لينفذ من خلالها لما أداه من استجلاء حسه الفني وتوظيفه في هذا العمل الإبداعي الخلاق.

د - الصدق الفني:

يسلمنا الحديث عما سبق في هذا المبحث إلى قضية الصدق، وقد أدارها النقاد حول الشعر ورأى الكثيرون منهم أنه لا يراد بالصدق (مطابقة الخبر للواقع) وبالكذب (عدم مطابقته للواقع) مما أخذت به بعض كتب البلاغة في تفسيرها لهذا المصطلح[111]، وإنما المراد بالصدق ما يقوله الإنسان مؤمناً بمضمونه، ولعل ما ورد في بعض آيات القرآن الكريم من شهادة الله عز وجل بكذب المنافقين، مع أنهم شهدوا لرسوله بالرسالة[112]، ما يوحي بأصالة هذا المفهوم الملتصق بالنفس الداخلية فيما تذهب إليه من صدق أو كذب دون تعويل على ما يقوله القائل بلسانه سواء طابق الواقع أو خالفه، والصدق والكذب بهذا المعنى هو ما يقصده

108 السابق ص 131.
109 السابق ص 168.
110 السابق ص 126.
111 بغية الإيضاح لتخليص المفتاح ص .
112 سورة المنافقين، الآية 1.

نقاد الأدب، ويأخذ الصدق عندهم سمة (الصدق الفني)[113].

وحول الصدق الفني والآخر الواقعي قامت مساجلات بين من يقولون: خير الشعر أصدقه ومن يقولون: (خير الشعر أكذبه)، ويدعو الأولون إلى ضرورة إبانة الحقيقة كما هي، وصدق المطابقة، والإصابة في الوصف، وعدم المبالغة، وعدم تجاوز الحد، ويرى الآخرون أن هذا (الكذب) ميدانه التخيل والتمثيل، وكلاهما لا يذهب بلب الحقيقة، وإنما يتلطف في المبالغة في عرضها، ويتوخى تلوينها، وذلك فن مقبول ومطلوب، وبدونه لا تتسع طاقة الشاعر للتعبير والتصوير[114]. ولعل الإمام الجرجاني خير من عرض هذه القضية عرضاً مجرداً حين وازن بين الفئتين، وانتهى إلى أن القائل بالصدق الواقعي دون الفني هو في الشعر كالمقصور المدانى قيده، والذي لا يتسع كيف شاء يده وأيده[115]، ثم هو في الأكثر يورد على السامعين معاني معروفة، وصوراً مشهورة[116].

وفي ضوء ما تقدم يمكن النظر إلى ما نظمه أبو مسلم من نماذج المديح للنبي عليه الصلاة والسلام، إذ ترجمت هذه النماذج لكل خالجة من خوالج نفسه الشاعرة، وبلغت حدّ التوافق بين خلائقه وشعره، والشاعر إذا بلغ مثل هذا المبلغ، فتلك أية التعبير الصادق، أو تلك أية الشاعرية أو الملكة الفنية[117]، ويمكننا أن نستعين هنا بما طرحته مدرسة الديوان حول قضية الصدق، إذ رأت ضرورة أن يكون الشعر صادراً عن مزاج أصيل لا تكلف فيه ولا اختلاق، فذاك هو الشعر الصادق الأصيل، وفيه يصدر الشاعر عن طبعه، وتتجلى فيه صورة حياته، ولا يروض الكلام فيما يتعارض مع هذا الطبع، وهذا وحده يجعل فنه وحياته شيئاً واحداً، وهو ما كان عليه الشاعر في كل بيت نظمه، أو معنى ذكره، أو أشار إليه، يقول المازني في هذا الصدد؟ الأدب الحق هو الذي يصور الوجدان والأحاسيس في صدق، ويعطي صورة صادقة للناس والحياة، ولا يقيم وزناً للزخرف اللفظي، وإنما يوجه كل عنايته للمعنى، وكل معنى صادق مهما كان موضوعه أو هدفه وغايته، فهو خليق بأن يكون موضوعاً للأدب[118]،

113 التراث النقدي عند العرب، رؤية تاريخية وفكرية، د. عبد السلام عبد الحفيظ، طبع جامعة الأزهر، د.ت، ص 140.
114 قضايا النقد الأدبي الحديث، د. محمد السعدي فرهود، دار الطباعة المحمدية، مصر 1979م، ص 150.
115 المدانى قيده، المضيق قيده. والأيد: القوة.
116 أسرار البلاغة، ص 272.
117 النقد الأدبي الحديث، مقاييسه واتجاهاته، د. العربي حسن درويش، دار الفكر العربي، القاهرة 1995م، ص 35.
118 المصدر السابق، ص 53.

فكيف إذا كان الموضوع ما تخيّره شاعرنا من مديح لم يدفعه إليه رغبة مادية أو منفعة دنيوية، ولم تحمله عليه رهبة من فرد أو نظام، بل هو واقع الحب والإعجاب والتقدير لصاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام، يقول(119):

ذهلت عن كل شيء مذ علقت به ... فلا أفرق بين الصفو والكدر

وجدت روحي صريعاً في مصارعه ... يا حب لا تبق من روحي ولا تذر

ويقول مبوّئاً النبي الكريم مكانته بين الخلائق والرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام(120):

وآثرته من بين خلقك كلهم ... بأن كان عند الله خير وسيلة

وآثرته من بين رسلك كلهم ... بأن جاء مبعوثاً إلى خير أمة

وآثرته بالنعت من قبل بعثه ... على الصحف الأولى بكل نبوة

وآثرته من كلّ زلفى ومفخر ... بما قصرت عن فهمه كل نهيّة

فصل وسلم بالذي أنت أهله ... عليه وبارك وارض في كل لحظة

فمثل هذا الشعر عليه طابع ناظمه، وفيه روحه وإحساسه وخواطره، ومظاهر نفسه وما تطلعت إليه من حب، أو نعت لمقام النبي ﷺ، ومثل هذا كاف ليبوئه مكانه في الأدب، ويخلع عليه حلية الصدق الفني، وهذا ما عرضت له مدرسة الديوان، حيث رأى العقاد أن الشعر حتى يكون صادقاً يجب أن يتضمن خصائص الشاعر ومميزاته بالإضافة إلى مميزات الباعث على قول الشعر أيضاً، فالمدح أو الرثاء أو الهجاء العام الذي يصح أن يقال في كل الناس يكون شعراً خلا من الصدق والمدلول(121)، ولا يخفى هنا، ما لشعر أبي مسلم من الخصوصية، إذ لا يقال إلا في مقام الرسالة الكريمة، ولا يخفى ما ينطوي عليه من عاطفة مشبوبة تنعت هي الأخرى بصدقها وإخلاصها وتدرجها في التعبير عن حال الشاعر المحب مستجيراً أو متوسلاً، محباً وعاشقاً، بل وولهان ذاهلاً عن كل شيء إلا عن محبوبه عليه الصلاة والسلام.

---

119 ديوان أبي مسلم البهلاني، طبع وزارة التراث، ص 260.

120 السابق، ص 113.

121 النقد الأدبي الحديث، مقاييسه واتجاهاته، ص 36.

هـ - التناص القرآني والحديثي:

مما لا شك فيه أن التناص هو أحد مميزات النص الأساسية التي تعود إلى نصوص أخرى سابقة أو معاصرة، إذ لا وجود لتعبير لا يفترض تعبيراً آخر، ولا وجود لما يتولد من ذاته[122]، بيد أن هذا لا يعني المباشر في الإفادة من النصوص السابقة والمعاصرة، فقد يكون هناك تناص غير مباشر يقرب أو يبعد من النص الأصلي، يتفيأ ظلاله ويستمد منه، وغني عن القول ماذا يحدثه التناص المباشر وغير المباشر من غنى فكري وأدبي وغنى في النص الأدبي والخطاب الشعري.

هذا وقد سبقت الإشارة إلى عدد من مواضع التناص القرآني والحديثي والشعري في خطاب أبي مسلم، ونريد فيما بقي من بحث أن نشير إلى مواضع أخرى توثيقاً لفكر الرجل واستلهامه الأدبي والفني من نصوص القرآن والسنة، إذا من عين بيانها، ومنهل فيوضاتها استقى، فأعطى وأفاض، ولم يبعد عن الخط السواء فيما أفاد منه هذه النصوص مباشراً أو غير مباشر، ولا شك أن مثل هذا البحث والتقصي للمعاني والأفكار والخيالات والصور التي أفاد منها الشاعر من هذه المصادر، أو من غيرها من مصادر التراث الشعري تدفع عنه ما يثار أحياناً أو يعلق في النفس لدى قراءتها الأولى من أنه قد يكون متأثراً بمبدأ الحلول وعقيدة وحدة الوجود، حاشاه من هذه العقائد وأمثالها، فالأمر لا يعدو فيما طرحه من فكر ومعان أنه كان يمنح من معين المعاني الإيمانية بما خطه كتاب الله عز وجل، وبما جاءت به الأحاديث الشريفة، أو سبق إليه أكابر شعراء العربية ممن امتطى منصة المديح النبوي، ولئن عبّر عن بعض المعاني الحديثية التي شاعت على ألسن الناس، وفيها شيء من ضعف ونحوه، فهذا مما دخل فيه عموم وخلق كثير من المسلمين، ولا يحمل بحال من الأحوال على العقائد الفاسدة، أو ما أشيع عن بعض أهل التصوف من اعتناقهم مبدأ الحلول ووحدة الوجود، وأنه اتبعهم أو تأثر بهم في هذا المجال.

وفيما يلي جولة مع بعض خطاب أبي مسلم، وما أفاد منه من نصوص قرآنية وحديثية تثبت، ما ألمعنا إليه من حسن عقيدة الرجل، وعدم تأثره بأي من العقائد المغلوطة، وتفضي إلى عالم النور الذي استقى منه عباراته ومواجده، وما خطه

122 معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش، ص .

قلمه، أو نبست به شفتاه.

ففي قصيدته المدحية التي ختم بها ذكره وجولته النديّة في رحاب أسماء الله الحسنى[123]، قوله في مطلعها:

وصـل وسـلم عـدّ أسـرار كلّ مـا ... لذاتك من إسم بـدا أو بخفية

تناص مع الآية القرآنية الكريمة: ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ ﴾ [الأعراف: 180]، وتناص مع الحديث الشريف الذي أخرجه الإمام أحمد في مسنده، وفيه (أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي...) وقوله:

وصـل وسـلم ما أفاضت غيوثها ... عـلى أنفس حتى زكـت وتزكت

تناص مع قوله تعالى:﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا 7 فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا 8 قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا 9 وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا 10 ﴾ [الشمس: 7-10]، وقوله:

وصل وسلم ما تحقق مخلص ... بها فانتشا من بحر عين الحقيقة

على المصطـفى الهـادي إليك محمد ... رسولك ختم الرسـل خير البرية

تناص مع قوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: 40]، وتناص مع الحديث الشريف الذي أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما ومنه «وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»[124] وقوله:

هـو الجامـع الأسماء جمـع تحقق ... ومشكاة مصباح الصفات الجليلة

فالمعنى غير بعيد أو مبالغ به، إذ هو عليه الصلاة والسلام خير من جمع أسماء الله ورعاها وتحقق بنورها وأسرارها وظاهرها وباطنها، فمثل هذا المعنى تناص واضح

123 ديوان أبي مسلم لابهلاني، طبع وزارة التراث، ص 112، وما بعدها.

124 باب مسند المكثرين من الصحابة، الحديث، الحديث رقم 3528 و4091.

مع قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ [النور: 35]. وقوله:

هو الكاشف الأستار عن نير الهدى　　　هو الباعث المبعوث بالحنفية

تناص واضح في شطره الأول مع قوله تعالى: ﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ [المائدة: 15] وتناص واضح في شطره الثاني مع الآية الكريمة: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [آل عمران: 67] وقوله تعالى في الآية التالية لها: ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 68]، وقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم: 30] وقوله:

فكل مزايا الرسل والأنبياء في　　　بحار مزايا شأنه حكم نقطة

تناص مع قوله تعالى: (تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)[البقرة: 253]، وتناص مع الحديث الشريف «فضلت على الأنبياء بست قيل ما هن أي رسول الله؟ قال: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلى الخلق كافة وختم بي النبيون»[125] وقوله:

وآثرته من بين خلقك كلهم　　　بأن كان عند الله خير وسيلة

تناص مع الحديث الشريف يقول ﷺ: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاةً صلى الله بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة»[126] وقوله:

وآثرته من بين رسلك كلهم　　　بأن جاء مبعوثاً إلى خير أمة

تناص مع قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: 110]، وقوله:

125 سبق تخريجه ص 17.

126 سبق تخريجه ص 4.

وآثـر بالنعـت مـن قبـل بعثه على الصحف الأولى بكل نبوة

تناص مع قوله تعالى على لسان عيسى عليه الصلاة والسلام، ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: 157]، وقوله:

محمـد الـبر الرحيم الذي أبى حريصاً علينا بـين بر ورأفـة

فتناصه واضح، واستمداده بيّن، وبأكثر من موضع ولفظ، وهو ما تجده في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

ونجد نحو هذا في أبيات القصيدة الثانية التي خصها للمديح النبوي[127]، ففيها مواضع كثيرة من التناص القرآني والحديثي، وقد يوحي بعض هذه المواضع بشيء من المبالغة، بيد أنه لدى التحقق وربط المعاني الشعرية بمصادرها في القرآن الكريم والسنة الشريفة يزول مثل هذا التوجه لحمل كلام البهلاني على المبالغة، ويمكننا التمثيل لما سبق بقوله مادحاً النبي الكريم:

وأول الـكل بعـد الله مبتدعـاً وأول الكـون عند الله في الخطر

فهذا مما تواردت عليه الآيات والأحاديث الشريفة، من نحو قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: 253] ومن نحو ما ورد في الحديث النبوي الشريف: «أنا سيد ولد آدمَ يوم القيامة ولا فخر...»[128] وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث آخر: «أنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة»[129]، وقوله مما سبق الاستشهاد به «فضلت على الأنبياء بست...» وله نظير كذلك في الحديث المروي عن جابر «وأول ما خلق الله نور نبيك يا جابر»[130].

وقد نقع على معان عمد إليها الشاعر غير أن تناصها لا يأخذ منحى المباشرة، وهي مما قام في نفسه تمثلاً حياتياً لمعاني القرآن دون أن يعمد إليه نقلاً أو تعبيراً

127 ديوان أبي مسلم البهلاني، طبع وزارة التراث، ص 259.
128 أخرجه الترمذي في سنن كتاب المناقب (46) حديث رقم 3548 وابن ماجه في كتاب الزهد برقم 4298.
129 صحيح مسلم، باب الإيمان، حديث 290، وأخرجه أحمد في باقي مسند المكثرين 1969 والدارمي في المقدمة 51.
130 كشف الخفاء 311/1.

من نحو قوله:

ذهلت عن كل شيء مذ علقت به فلا أفرق بين الصفو والكدر

وهو تعبير عن قوله تعالى في وصف حال المؤمن الراضي بقضاء الله وقدره، والمسلم لله في كل أموره، وهو قوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: 23].

والواقع أن التناص القرآني والحديثي في شعر أبي مسلم البهلاني ومديحه للنبي عليه الصلاة والسلام يتجاوز تأثره بمعنى من المعاني، أو بلفظ من الألفاظ إلى تناص أكبر، إذ نراه يتمثل حال الكتاب ووحيه، وروح الحديث وهديه، فيأتي بالمعاني والرقائق الإيمانية، يفيض بها قلبه، فتجري على لسانه معبرة أيما تعبير عما يهدف إليه ويريد إفادة المخاطب به، كأني به - وكما سبق الإلماع إليه - تمثل منهج القرآن وشفافيته في الوعظ والزهد، ولا سيما حين يتجاوز القرآن بعض تفاصيل القص والحكاية، ليضع المخاطب في موضع العظة والعبرة، حيث الغاية من القصة كلها، وكذلك أبو مسلم في تناصه الكبير، يتجاوز بعضاً من فنيات منهج القصيدة العربية، ليضع نفسه، ويضع قارئه حيث الحضرة النبوية، قطب الرحى، ومبدأ إلهام الشاعر فيما صاغه من أشعار ومعان.

وبذا نأتي على ختام هذه الجولة في ملامح التشكيل الفني في شعر أبي مسلم البهلاني، وما تمثله قصيدة المديح النبوي من ذلك، وكلنا أمل في أنّ ما تقدمنا به وفّى بالغرض، أبان مكنوناً، وجلا معنى، ووضح لفظاً، ووضع الشاعر بين أقرانه، من غير محاباة، يعتقدها ظان، فيجلوها شعر الشاعر بمضمونه الإيماني وأسلوبه الفني الذي يتراءى في كل صفحة من صفحات ديوانه.

من ديوان أبي مسلم

ناصر بن سالم بن عديم الرواحي العماني

في مدح الرسول ﷺ:

غوث الوجود أغثني ضاق مصطبري ... سر الوجود استلمني من يد الخَطَرِ
نـور الوجود تداركني فقـد عميَت ... بصيرتي في ظلام العين والأثرِ
رُوحَ الوجـود حياتي إنهـا ذهبت ... مـن جهلها بين سمع الكون والبصرِ
رُوح الوجود دهى الكرب العظيم وفي ... أنفاس روحك روح المحرج الحصرِ
أنسَ الوجود قد استوحشتُ من زللي ... وأنتَ انسـيَ في وردي وفي صدري
أمنَ الوجود أجرني من مخاوف ما ... أحرزتُ نفسي منها في حمى الحذرِ
عينَ الوجود ترى بـؤسي ونـازلتي ... وفي محالك انقاذي مـن الضرر
عـزَّ الوجـود بعـز الله أنـتَ لهـا ... فواقـر درسَـت أعيانها أثري
وجهت نحو رسول الله نـازلتي ... وقلـتُ يا نفسِ حُمَّ النصر فانتظري
أمنيـة الفـوز منـه غـير خائبـةٍ ... ومطمـع النجح منه غير منحسـر
ونـائـل الخير منـه غـير منقطـع ... وفائض البر منه غـير منحصر
بسطتُ كفي إلى فياض رحمته ... على يقين بدركـ السؤال والظفر
وقمـتُ الْهَـجُ والآمـالُ صادقـةٌ ... يا عصمتي يا حبيبَ الله يا وزري
حقيقة الصبر استعطي الثوابَ بها ... والفقر يلزمني مـا عـزّ مقتدري
ولسـت اعذر هذا الدهر في شظفٍ ... مـا دام فضلك عندي غـير معتذرِ

ولا أريدك بالأيام تبصرة لأنتَ أبصر بالدنيا من البصرِ
أنت الحياة التي نفس البقاء بها بل أنت مكنون سر الله في البشرِ
مولايَ من كنت في الأزمات ناصره فليس يغلبه شيءٌ سوى القدرِ
تلقني في مهاوي حوبتي فلقد أوقعت نفسي ببعدي عنك في الخَطرِ
يا مصطفى الله يا مختار نظرتهِ يا أصل ما أظهر الابداع من قطرِ
يا رحمة الله يا مبعوثَ رأفته يا مظهر اللطف في الأرواح والصورِ
يا أول الكل بعد الله مبتدعاً وأول الكل عند الله في الخطرِ
يا آخر الرسل لا تأخير مرتبةٍ وإنما السرّ مطويٌ عن الفِكر
يا ظَاهراً بكمالات الظهور على كل الظواهر في سُلطانِ مقتهر
يا باطناً لم تفته الباطنات ولم يُدرك مقاماتِهِ علم من الفطر
أنوار حبك في قلبي قد انطبعَت جِبِلةً كانطباع الشمس في القمر
ما زال حبك في روحي يخامرها حتى تجردت عن عيني وعن أثري
ما للمحبة مقدار إذا اقتصَرت الحق حبك حب غير مقتصر
تجرداً من هنات كلها حجبٌ لا وصل والحُبّ محجوب بذي الستر
أدعوك خلف حجاب الكون منبسطاً في بسط حبك لم أخلص من الأثر
ذهلتُ عن كل شيء مذ علقتُ بهِ فلا أفرق بين الصفو والكدر
لا أحسب الروح إلا أنها خُلقت من الهوى فاختفت عن عالم الصور

فـلا عـلاج لها من أصـل فطرتها ... إذا أصيبـت بسهـم الحب عن قدر

وجـدتُ روحي صريعـاً في مصارعه ... يا حـبٌّ لا تُبق مـن روحي ولا تذر

نـار المحبـة نـار لا يقـام لهـا ... لواحـة قـسَماً بـالحـب للبشـر

طارحـت أهل الهوى حـتى بُليتُ بهِ ... ففتهم ومشـوا خلفي عـلى أثري

لا يصدُقُ الحـب إلا مـن يموت به ... ما للهوى دون حسو الموت من قدر

وليتهـا موتة في الحـب موصلة ... بوصلة من حبيـب الله في العمر

ولستُ في الحب من نفسي على ثقةٍ ... من نصبها للهوى طَوراً على وَطَر

إن كان حـبي معلولاً فأنـتَ لها ... أدرك عليلـك قبل الأخذ في الخطر

الخاتمة الأخرى

وصل وسلم عد أسرار كل ما　　لذاتك من اسم بدا أو بخفية

وصل وسلم عد أسرار جاهها　　ومقدارها في الشأن والعظميّة

وصل وسلم عد أسرار نورها　　وأضوائها يا نور في كل رتبة

وصل وسلم عدّ ما في بحارها　　من الجوهر المكنون عن أي فطرة

وصل وسلم مثل عد شؤونها　　وأكوان تأثيراتها المطلقية

وصل وسلم مثل سيب فيوضها　　وقوة ادراكاتها الأزلية

وصل وسلم مثل بحر مدادها　　وتنزيل امداداتها كل قوة

وصل وسلم عدَّ ما دركها　　من الأثر المغمور بالقادرية

وصل وسلم عد ما تحت مجدها　　وسلطانها من متقن الموجدية

وصل وسلم حسب تصريف قهرها　　وتدبيرها الأحكام في كل ذرة

وصل وسلم حسب أشكال ما اقتضت　　من القدم الأعلى على الأبدية

وصل وسلم حسب سرعة لطفها　　وتفريجها يا سيدي كل كربة

وصل وسلم حسب كنه جمالها　　وحسب مقامات عليها تجلت

وصل وسلم حسب مجد جلالها　　وما لتعاليها من القاهرية

وصل وسلم حسب قدس كمالها　　وتكميلها الأسرار حيث تولت

وصل وسـلم حسـب رفعة عزها ... وأعزازها فـي حصنها من أعزت
وصل وسـلم حسـب ما تقتضيه في ... مظاهرها مـن واجبـات الألوهية
وصـل وسـلم مـا تجلى ظهورها ... بمطلـع قيوميـة الأحديـة
وصـل وسـلم ما أفاضت غيوثها ... على أنفس حتى زكت وتزكت
وصـل وسـلم مـا استهل سحابها ... بفتـح وغفـران ولطف ورحمة
وصـل وسـلم مـا توصـل واصـل ... إليـك بها إذ هـن أمتن وصلة
وصل وسلم ما تحقق مخلص ... بها فانتشـا مـن بحر عـين الحقيقة
على المصطـفى الهـادي إليك محمد ... رسـولك ختم الرسـل خير البرية
هـو الجامـع الأسماء جمـع تحقق ... ومشـكاة مصباح الصفات الجليلة
هو الجامع الأسرار في جيب سره ... هو المشـرق الأسرار في أي وجهة
هو الكاشـف الأستار عن نير الهدى ... هو الباعـث المبعوث بالحنفية
هو الأول المكنون في أبحر الخفا ... هـو الآخـر المقصـود في كل رتبة
هـو الظاهـر المعلـوم قبـل ظهـوره ... هو الباطن الخافي بكل حقيقة
هو السابق المخصوص مجداً بسبق كن ... هو اللاحق المـرضي للأقربية
هـو القاهر الغلاب سـيفاً وحجةً ... هـو المجتبى المختـار للأكرميـة
هـو الباهـر البرهان نـوراً وكلمة ... هو البين الآيات روح الشـريعة
هـو القائم السـاطي بعـزم مؤيد ... هـو الفـاتح المنصور في كل وجهة

هو الناصر الأمر الالهي حازماً منيعاً علياً في مقام المعية
توليته واخترته وملأته بنورك واستخلصته للمحبة
وبوأته من كل خير أتمه وأزكاه والأكوان في العدمية
فكل مزايا الرسل والأنبياء في بحار مزايا شأنه حكم نقطة
وما طمع الأملاك والرسل مطلقاً بأن يبلغوا مقداره مع نسبة
ولا جنح الأبرار أن يتزلفوا إليك سوى من بابه عند قربة
قسمت حظوظ القرب بين جميعهم ولكنها من حظه في الحقيقة
وآثرته من بين خلقك كلهم بأن كان أصل الكائنات البديعة
وآثرته من بين خلقك كلهم بأن كان عند الله خير وسيلة
وآثرته من بين رسلك كلهم بأن جاء مبعوثاً إلى خير أمة
وآثرته بالنعت من قبل بعثه على الصحف الأولى بكل نبوة
وآثرته من كل زلفى ومفخر بما قصرت عن فهمه كل نهية
فصل وسلم بالذي أنت أهله عليه وبارك وارض في كل لحظة
صلاة وتسليماً يوازي مقامه ويعدل معلوماتك الفطرية
وأكرمه بالزلفى التي ليس دونها قريب ولا من فوقها من فضيلة
وضاعف له الفضل العظيم مشفعاً بأضعاف ما أحصاه علم الألوهة
وبوئه من أسنى المقامات والرضا مبوء صدق دونه كل رفعة

وبلغـه ما يرتجيـه لنفسـه   مضاعفـة الاكـرام من كل خيرة

وبلغـه ما يرتجيـه لغـيره   جزيـلاً به عيناه لذت وقرت

وشـفعه يا ذا الجـود فينـا شـفاعة   ننـال بها الغفران عن كل زلة

وشـفعه فينا وارض عنـا بجاهه   رضـا يتلقـاني بفـوز ورحمـة

وصل وسـلم ما دنا منك ذاكر   عليـه وخصصـه بأسـنى مزيـة

صـلاة وتسـليماً عليـه وآله   وأصحابـه مـع مخلصـي التبعيـة

وصل على الرسـل الكرام وآلهم   وسـائر مـن أكرمتهـم بـالنبـوة

وصـل عـلى الأملاك في ملكوتهم   وجبريـل مخصوصـاً بأزكى تحيـة

وأهل سبيل الاستقامة في الهدى   وصـل علينـا عنـدهم ذا العطيـة

إلهي بجـاه السـيد الأكرم الذي   هو الرحمة العظمى لـكل الخليقة

محمـد الـبر الرحيم الذي أبى   حريصـاً علينـا بـين بر ورأفـة

توسلت ملتاذاً بسلطان قربه   إليك وحسبي أن يكون وسـيلتي

ومـن يتوسـل بـالرسـول محمد   يلاق المنى مـن عين كل رغيبة

إلهي قرعـت الباب من حيث ينبغي   وناديت بـالأسماء في صوت دعوتي

ووجهت وجهي نحـو وجهك ضارعاً   واسمك ذكري والحبيـب ذريعتي

إلهي هـب لي نظرة في مطالبي   فحسبي غنى أن نظرة منك حقت

وخـذ بيدي في كل أمر سياسـة   وحسن ختامي بـالرضا اجعل مبرتي

الفهارس العامة

فهرس الآيات

اسم السورة	رقم الآية	الصفحة
البقرة	(253)	34، 62، 63
آل عمران	(67-68) (110)	62، 62
المائدة	(15)	48، 62
الأعراف	(157) (180)	63
التوبة	(128)	63
يوسف	(4)	33
الأنبياء	(107)	34
النور	(35)	47، 62
الروم	(30)	62
الأحزاب	(40) (56)	12، 34، 61
الحديد	(3) (23)	52، 64
الصف	(6)	63
الشمس	(7)	61

فهرس الأحاديث

فهرس الأماكن

فهرس الأعلام

فهرس الشعر

أول البيت	قافيته	البحر	عدد الأبيات	القائل	الصفحة
عفت	خلاءُ	الوافر	3	حسان بن ثابت	26
كيف	سماءُ	الخفيف	1	البوصيري	28
ولد	ثناءُ	الكامل	1	أحمد شوقي	28
نظمت	طغراءِ	الكامل	2	أحمد شوقي	36

قافية الألف اللينة

مى	ندى	الطويل	1	الأعسى	18، 32
تلك	النهى	رجز	4	البهلاني	27

قافية التاء

إن	الآياتِ	الطويل	2	-	12
وأيد	بالكرامةِ	رجز	10	البهلاني	22
وصل	بخفيةِ	الطويل	1	البهلاني	30، 52، 56، 61
وآثرته	البديعةِ	الطويل	2	البهلاني	35، 71
إلهي	حقتِ	الطويل	2	البهلاني	40، 72
هو	الجليلةِ	الطويل	1	البهلاني	47، 70
ببابك	وجهةِ	الطويل	5	البهلاني	46
وصَلِّ	العظيمة	الطويل	١	البهلاني	53

وصَلِّ	ذرةِ	الطويل	1	البهلاني	53
وصَلِّ	الموجديةِ	الطويل	1	البهلاني	53
وصَلِّ	رتبةِ	الطويل	1	البهلاني	53
وصلِ	فطرةِ	الطويل	1	البهلاني	53
وصلِ	بالقادريةِ	الطويل	1	البهلاني	53
وصلِ	قوةِ	الطويل	1	البهلاني	53
هو	بالحنفيةِ	الطويل	1	البهلاني	70
وصلِ	الحقيقةِ	الطويل	2	البهلاني	70
وصلِ	تزكتِ	الطويل	1	البهلاني	70
وآثرته	وسيلةِ	الطويل	1	البهلاني	35، 59، 71
محمد	رأفةِ	الطويل	1	البهلاني	72
وآثرته	نبوةِ	الطويل	1	البهلاني	71
فكل	نقطةِ	الطويل	1	البهلاني	71

قافية الدال

على	شهودا	الطويل	1	البهلاني	40
ألم	المسهدا	الطويل	3	الأعسى	18
بطيبة	تهمدُ	الطويل	2	حسان بن ثابت	26
فتلك	البعدِ	البسيط	1	النابغة الذبياني	31

قافية الراء

إن	تعذرا	الكامل	3	ابن الفارض	38
غوث	الخطرِ	البسيط	1	البهلاني	8، 23، 29، 39، 49، 51، 56، 66
أنوار	القمرِ	البسيط	2	البهلاني	16، 36، 67
وجهت	فانتظري	البسيط	1	البهلاني	29، 32، 52، 66
يا رحمة	والصورِ	البسيط	1	البهلاني	34، 67
يا آخر	الفكرِ	البسيط	1	البهلاني	34، 67
وأول	الخطرِ	البسيط	1	البهلاني	34، 63
يا ظاهراً	مقتهرِ	البسيط	2	البهلاني	35، 67
طارحت	أثري	البسيط	2	البهلاني	38
إن	الخطرِ	البسيط	1	البهلاني	39
أمنية	منحسرِ	البسيط	1	البهلاني	33، 49، 52، 66
وجدت	تذرِ	البسيط	2	البهلاني	49، 59، 68
نور	الأثرِ	البسيط	1	البهلاني	8، 24، 29، 51، 53
عين	الضررِ	البسيط	1	البهلاني	52
عز	أثري	البسيط	1	البهلاني	52
أمن	الحذرِ	البسيط	1	البهلاني	51
أنس	صدري	البسيط	1	البهلاني	51
ذهلت	الكدرِ	البسيط	1	البهلاني	16، 59، 64، 67

قافية العين

أفيقوا	ضارعِ	الطويل	3	البهلاني	6

قافية اللام

بانت	مكبولُ	البسيط	1	كعب بن زهير	19، 32
بعض	حالي	خفيف	1	الإربلي	21
وحياة	الجميلِ	مجزوء الكامل	2	ابن الفارض	37

قافية الميم

خليلي	التهائمِ	الطويل	4	البهلاني	5
شربنا	الكرمُ	الطويل	1	ابن الفارض	27
أمن	بدمِ	البسيط	1	البوصيري	19
إن	سلمِ	البسيط	1	صفي الدين الحلي	21
بطيبة	الكلمِ	البسيط	1	ابن جابر الأندلسي	21
هل	فالعلمِ	البسيط	2	ابن الفارض	27
أعيا	منفحمِ	البسيط	3	البوصيري	36
فما لعينيك	يهمِ	البسيط	3	البوصيري	37

المصادر والمراجع

- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر، طبع دار المدني، القاهرة، ط1، 1412هـ/1991م.
- البديعيات في الأدب العربي، د. علي أبو زيد، عالم الكتب، بيروت، دمشق (1403هـ/1983م).
- التراث النقدي عند العرب، رؤية تاريخية وفكرية، د. عبد السلام عبد الحفيظ، جامعة الأزهر، د.ت.
- حقائق عن التصوف، عبد القادر عيسى، مكتبة العرفان، حلب، 1993م.
- ديوان ابن الفارض، عمر بن الفارض، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت.
- ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة البابي الحلبي، مصر، د.ت.
- ديوان أبي مسلم البهلاني، تحقيق علي النجدي ناصف، طبعة دار الكتب المصرية (1400هـ/1980م).
- ديوان أبي مسلم البهلاني، إصدار وزارة التراث القومي والثقافة، عُمان (1407هـ/1987م).
- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق السيد حسنين، طبع دار المعارف، مصر، 1973م.
- السيرة النبوية، لابن هشام، قدم لها وعلق عليها: طه عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت (1407هـ/1987م).
- شرح ديوان كعب بن زهير، صنعة أبي سعيد السكري، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، 1950م.
- شعراء عمانيون، سعيد محمد الصقلاوي، مكتبة النهضة، مصر (1416هـ/1996م).
- شعر الخليلي بين التقليد والتجديد في ديوان وحي العبقرية، د. محمد أحمد مخلوف، أسيوط، مصر، 2002م.
- الشعر والشعراء، لابن قتيبة الدينوري، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، 1985م.
- الشعر العماني، مقوماته واتجاهاته، د. علي عبد الخالق علي، دار المعارف، مصر 1984.
- الشعر والمتلقي، كمال أبو ديب.
- الشوقيات، أحمد شوقي، دار الفكر، بيروت (1418هـ/1997م).

- الصبغ البديعي في اللغة العربية، د. أحمد إبراهيم موسى، دار الكاتب العربي، القاهرة (1388هـ/1969م).
- صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، نشر دار القلم، بيروت، لبنان، 1987م.
- صحيح مسلم، للإمام مسلم بن الحجاج، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1972م.
- الصلاة على النبي، أحكامها، فضائلها، فوائدها، جمع وترتيب عبد الله سراج الدين، دائرة الأوقاف الإسلامية، دبي، د.ت.
- العصر الجاهلي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، 1996م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، لابن رشيق القيرواني، ت محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، 1955.
- قضايا النقد الأدبي الحديث، د. محمد السعدي فرهود، دار الطباعة المحمدية، مصر، 1979م.
- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الحديث على ألسنة الناس، إسماعيل بن حجر العجلوني، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، طبعة دار المعارف، مصر.
- مختارات من الشعر العربي القديم، معاذ السرطاوي ومروِّح الرفاعي، دار الفكر، عمان - الأردن.
- أبو مسلم الرواحي (حسان عمان)، د. محمد صالح ناصر، مكتبة مسقط، عمان (1416هـ/1996م).
- مسند الإمام أحمد، للإمام أحمد بن حنبل، نشر المكتبة العالمية للبرامج، 1994م.
- المعجم الأدبي، جبور عبد النور، طبع دار العلم للملايين، بيروت، 1984م.
- معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، سعيد علوش.
- معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مجدي وهبة، كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.
- مقدمة القصيدة في العصر الجاهلي، د. حسين عطوان، دار الجيل، بيروت، 1987م.
- النقد الأدبي الحديث، مقاييسه واتجاهاته، د. العربي حسن درويش، دار الفكر القاهرة، 1995م.
- مع الاعتذار الشديد لبعض الطبعات غير المحققة تحقيقاً علمياً صحيحاً، إذ لم يكن بحوزتي غيرها.

فهرس الموضوعات

إصداراتنا

م	الكتاب	نوعه	المؤلف
1	سرديات عمانية	نقد	محمد بن سيف الرحبي
2	على حواف الشعر	نصوص	محمد بن سيف الرحبي
3	خطى وأمكنة	رحلات	عبدالرزاق الربيعي
4	رحلة أبوزيد العماني (ط2)	رواية	محمد بن سيف الرحبي
5	حقول الكلام	مقالات	مسعود الحمداني
6	هذا الذئب يعرفني	نصوص	خالد بن علي المعمري
7	رحيق النار	نصوص	زهران القاسمي
8	الطبيعة في الرواية العمانية	دراسات	منى بنت حبراس السليمية
9	إيضاح الطريقة للفنون العريقة فن المسبع	شعر	خميس بن جمعه المويتي
10	إيضاح الطريقة للفنون العريقة التغرود	شعر	خميس بن جمعه المويتي
11	قديس يحلق بعيدا	شعر مترجم	الشاعر الكوري: تشو أوهيون ترجمة/ أشرف أبو اليزيد
12	مظلة الحب والضحك	نصوص	بشرى خلفان
13	الديك	رواية	سالم الجابري
14	رفرفة (ط 2)	قصص	بشرى خلفان
15	نوارس الحكايات	قصص	محمد بن سيف الرحبي
16	حدود المشاوير	شعرشعبي	محمد الراسبي
17	اشكاليات الشعر العربي	دراسات	رقية بنت سيف البريدية
18	القافر	رواية	د. خالد الكندي

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للكتاب والأدباء

م	العنوان	النوع	المؤلف
1	لعيني ديالى	نصوص	محمد بن حبيب الرحبي
2	الخيمة ومفاتيح الحظ	مسرح	عزة القصابية
3	لألىء عربية	مقالات	ناصر بن حمود الحسني
4	بين قدرين	رواية	رأفت ساره
5	تحت المطر	مقالات	خالد بن علي المعمري
6	المشهد القصصي في الأردن	دراسات ونصوص	مجموعة كتاب أردنيين

إصداراتنا بالتعاون مع البرنامج الوطني لدعم الكتاب بالنادي الثقافي

م	العنوان	النوع	المؤلف
1	النباتات البرية في سلطنة عمان	علوم	يحيى بن سعيد الفطيسي
2	ابن عربي عندما يكون الحب حائرا	دراسات	عثمان بن موسى السعدي
3	نظرية قدامة	دراسات	قاسم بن سالم آل ثاني

إصداراتنا بالتعاون مع الجمعية العمانية للمسرح

م	العنوان	النوع	المؤلف
1	الآخر في المسرح العماني	دراسة	د. كاملة بنت الوليد الهنائية د. سعيد بن محمد السيابي

طبع بمؤسسة عمان للصحافة والنشر والإعلان

التشكيل الفني

في شعر أبي مسلم البهلاني

" هذا الكتاب محاولة جادة للوقوف على جديد أبي مسلم البهلاني في بنائه الفني لقصيدة المديح النبوي ، إذ جاء بجديد لم نعهده عند متقدمي شعراء العربية ، ومن جاء في أعقابهم ، أو عند من أوقف شعره منهم على "البديعيات " أو " المديح النبوي " فهو لم يبدأ بالديار والدمن والآثار وصفاً وتذكاراً ، ولم يبك الربع ويستوقف الرفيق، وهو بالمقابل لم يمهد لمديحه بذكر " البان والعلم " ولم يشر إلى "جيرة ذي سلم" بل مضى غير حافل بما تقاطر عليه الشعراء من جعلهم الميم روياً أو ذكرهم لمحسنات البديع ليقذف نفسه في الحضرة النبوية في حالة من الوجد والاستغ[illegible] نظيرها وقل مثيلها :

غوث الوجود أغثني ضاق مصطبري   سر الوجود استلمني من يد ال[illegible]






ISBN 978-99969-55-13-6
9 789996 955136